أرنست هيمنجواي

سوف تشرق الشمس

رواية

تقديم ومراجعة

د. حسن القاضي

الكتاب: سوف تشرق الشمس (رواية)

الكاتب: أرنست هيمنجواي

تقديم ومراجعة: د. حسن القاضي

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة - جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

هيمنجواي ، أرنست

سوف تشرق الشمس (رواية)/ أرنست هيمنجواي, تقديم ومراجعة: د. حسن القاضي

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٩١ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ١ – ٢٤٣ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان   رقم الإيداع : ١٠١٠٧ / ٢٠٢١

سوف تشرق الشمس





مقدمة

"سوف تشرق الشمس" واحدة من الروائع الروائية الكلاسيكية، للروائي الأمريكي أرنست هيمنجواي الفائز بجائزة نوبل في الآداب الأدب عام ١٩٥٤م، ولهذه الرواية شهرة كبيرة فتعددت ترجماتها إلى العربية، وتعددت طبعاتها سواء بعنوانها الحالي أو بعناوين أخرى مثل "والشمس تشرق أيضا" أو "ثم تشرق الشمس".

ولد أرنست هيمنجواي في يوم ٢١ يوليو عام ١٨٩٩م في أوك بارك بولاية الينوي من أب طبيب مولع بالصيد والتاريخ الطبيعي وأم ذات اهتمام بالموسيقى وفي سن عشر سنوات وفي عام ١٩٠٩م اشترى له أبوه بندقية صيد أصبحت فيما بعد رفيقة عمره إلى أن قتل نفسه بها عام ١٩٦١م.

وقد عمل هيمنجواي في مستهل حياته صحفيا بجريدة كنساس ستار ثم عمل متطوعا كسائق سيارة إسعاف في الصليب الأحمر الإيطالي عام ١٩١٨م في أواخر الحرب العالمية الأولى وهناك أصيب بجروح خطيرة أقعدته عدة شهور في المستشفى وخضع لعمليات جراحية كثيرة، ونتيجة لإصابته بتلك الجروح منح رتبة ملازم مع نوط الشجاعة، وفي تلك الفترة وقع في حب ممرضة تعمل في الصليب الأحمر تدعى أجنيس كوروسكي واتفقا على الزواج في عام ١٩١٩م لكنها تركته حيث تزوجت من رجل أعمال ثرى .

وفي عام ١٩٢١م وكان وقتها أصغر المتطوعين عمرًا، فلم يكن يبلغ التاسعة عشر بعد. ارتحل وقتها من نيويورك إلى باريس وبعدها أرسلوه إلى ميلان حيث عمل على خط النار، وهناك أصيب إثر انفجار قنبلة إصابة عنيفة تسببت في إجراء سلسلة من العمليات الجراحية استخرجوا بها حوالي ٢٢٧ شظية من ساقه. الأمر

الذي وصفه بدقة في روايته الشهيرة «وداعًا للسلاح».

وربما هذا هو أكثر ما يميز أدب هيمنجواي، أنه ذاتي بالدرجة الأولى، فهو لم يحاول أبدًا مجاراة الأحداث الأكثر تأثيرًا في وقته والكتابة عنها، بل كان يكتب عما يثيره ويتأثر به. كان يكتب عن نفسه وعن آلامه ومخاوفه دون أن يخضع قلمه لأي نوع من الرقابة الذاتية. فربما لا يعرف الكثيرون أن رائعة هيمنجواي الأكثر شهرة والأكثر احتفاءً من النقاد العجوز والبحر كانت قصة حقيقية.

وفيما بعد عمل مراسلا لصحيفة تورنتو ستار في مدينة شيكاغو وهناك قابل هايدلي ريتشاردسون التي أصبحت زوجته الأولى ثم هاجرا معا إلى باريس عام ١٩٢٢م وهناك عمل مراسلا صحفيا أيضا وتعرف على أدباء فرنسا، وفي عام ١٩٢٣م نشر أولى مجموعاته القصصية، وهي ثلاث قصص وعشرة أناشيد لكن كان أول عمل لفت الانتباه إلى أعمال هيمنجواي ما نشره في عام ١٩٢٦م وهو "سوف تشرق الشمس" التي حققت نجاحا كبيرا حيث قام من خلالها بتسليط الضوء على خيبة أمل جيله بعد الحرب العالمية الأولى.

وبعد ذلك تم الطلاق بينه وبين زوجته هايدلي بسبب علاقته ببولين فايفر التي أصبحت زوجته الثانية، وقد شجعه نجاح روايته على نشر كتاب"رجال بلا نساء" في عام ١٩٢٧م وهو مجموعة قصص ذات مواضيع متنوعة من مصارعة الثيران إلى الملاكمة والخيانة والطلاق والموت.

وفي شهر مايو عام ١٩٢٩م عاد هيمنجواي مع زوجته الثانية بولين بعد ولادة طفلهما باتريك لفلوريدا وفي عام ١٩٢٨م انتحر والده بإطلاقه الرصاص على رأسه وفي عام ١٩٢٩م هاجر ثانية مع بولين إلى أوروبا حيث نشر واحدة من أهم أعماله وهي" وداعا للسلاح" عن حياة هيمنجواي في إيطاليا وعمله كسائق سيارة إسعاف، ثم بدأ منذ عام ١٩٣٣م يتردد على كوبا وفيها كتب عمله "الفائز يخرج

صفر اليدين" ثم توقف عن النشر حتى عام ١٩٣٥م حيث قضى هذه الفترة من حياته في البحث عن المغامرات حيث قام برحلة سفاري من أجل صيد الحيوانات البرية في شرق القارة الأفريقية ،وكانت هذه هي هوايته منذ الصبا ومشاهدة مصارعة الثيران في إسبانيا وصيد الأسماك في فلوريدا ولتظهر في عام ١٩٣٥م روايته "روابي أفريقيا الخضراء" عن هذه الرحلة.

وما بين عام ١٩٣٦م وعام ١٩٣٨م عمل مراسلا حربيا لتغطية أحداث الحرب الأهلية الإسبانية وهناك قابل مراسلةً حربيةً تدعى مارتا جيل هورن ونشأت بينهما علاقة أدت إلى انتهاء زواجه من بولين ووصلا إلى الطلاق ثم تزوج من مارتا لتصبح زوجته الثالثة ،كان عام ١٩٤٠علامة فارقة في أدبه وكتاباته حيث نشر روايته" لمن تقرع الأجراس" التي رشحت فيما بعد لنيل جائزة بوليتزر، والتي تجاوزت مبيعاتها المليون نسخة في السنة الأولى، وفي نهاية الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥م قابل هيمنجواي مراسلةً صحفية أخرى هي ماري ويلش والتي تزوجها بعد طلاقه من مارتا لتكون زوجته الرابعة وفي عام ١٩٥١م نشر روايته "العجوز والبحر" التي فاز بسببها بجائزة نوبل في الآداب.

وفي عام ١٩٦١م وهو العام الأخير من حياته أصدر" ثلوج كليمنجارو" وهو مجموعة من القصص القصيرة ويعد هذا الكتاب من أفضل أعماله القصصية، وفي هذا العام انتقل هيمنجواي للعيش في منزل اشتراه في العاصمة الكوبية هافانا، وفي الساعات الأولى من صباح يوم ٢ يوليو عام ١٩٦١م أطلق النار على نفسه من بندقيته المفضلة فقضي نحبه عن عمر يناهز ٦٢ عاما.

ورواية" ثم تشرق الشمس" تعكس تأثير الحرب على البشر من حيث تناقضات شخصياتهم والحياة التي كانوا يعيشونها ما بين اللهو والسفر وخوض تجارب ومغامرات، فالراوي جيك بارنز، صحفي أمريكي يعيش في باريس، عاجز

بسبب إصابة تعرض لها في الحرب وتربطه علاقة مع بريت آشلي المتزوجة مرتين والمعروفة بتقلبها بين الرجال.

نلتقي في البداية بجيك وهو يلعب التنس مع صديقه روبرت كون، بعدها يصطحب فتاة ليل ويغادر النادي في سيارة أجرة مع بريت. وفيما بعد يصل بيل من نيويورك لينضم إلى جيك، ويصل مايكل كامبل خطيب بريت من أسكتلندا. ويسافر جيك وبيل إلى بنبلونا بالقطار، ويقابلون كون شمال بنبلونا للقيام برحلة صيد كانوا قد خططوا لها، لكن كون يترك أصدقائه ليقابل بريت في بنبلونا، وتبدأ غيرة جيك من كون على الرغم من استمتاعه بخمسة أيام من الصيد ويرغب كون بهجر المجموعة، لكنه في نفس الوقت يرغب في البقاء مع بريت. عندما يبدأ المهرجان في اليوم التالي تقضي المجموعة جل الوقت في الشرب والأكل والجري مع الثيران ومشاهدة مصارعة الثيران. ويُعَرف جيك بريت بمصارع ثيران، يسود بعدها جو من التوتر بين الرجال ويشعر كل من كامبل وجيك وكون بالغيرة من روميرو مصارع الثيران الشاب. وبعد المهرجان يغادر الجميع بنبلونا ويتلقى جيك برقية من بريت الموجودة في باريس تطلب منه أن ينظم إليها لأنها في مأزق. فيجدها وحيدة في مدريد وتخبره أنها قررت أن تستقر مع كمبل.

هكذا تُلخص الرواية أزمة المغتربين بعد الحرب العالمية الأولى. ويمزج هيمنجواي باريس وإسبانيا، فيصور الثيران تركض في بنبلونا ويصور حلبة صراع الثيران كالمكان الذي يواجه فيه الموت، ويخلط إثارة المهرجان بهدوء الطبيعة الخلابة في إسبانيا. وتعتبر هذه الرواية عموماً من أفضل روايات هيمنجواي إلى جانب وداعا للسلاح ولمن تدق الاجراس.

وقد وصفها جيفري مايرز أحد كتاب سيرة هيمنجواي بأنها" أعظم عمل للروائي الكبير"، وتصفها ليندا فاجنر مارتن الباحثة الأدبية المتخصصة في أدب

هيمنجواي بأنها روايته الأكثر أهمية.

وكان هيمنجواي قد بدأ في كتابة الرواية في يوم عيد ميلاده –٢١ يوليو –في عام ١٩٢٥، وأنهى المسودة الأولى بعد شهرين، أي في سبتمبر. بعدها ترك المخطوطة لفترة ثم عاد اليها من جديد في شتاء ١٩٢٦ لأجراء بعض التعديلات.

وقد كتب هيمنجواي الرواية بأسلوبه البسيط الذي اشتهر به، الخالي من الوصف المفصل وهي تعتبر نموذج لنظرية جبل الجليد الخاصة به. وشخصيات الرواية بنيت اعتمادا على شخصيات حقيقية في الدائرة المحيطة بهيمنجواي، ووقائعها تقوم على أحداث حقيقية. أراد الكاتب القول بأن "الجيل الضائع" –الذي كان يُعتقد أنه لا مجال لصلاحه بسبب الحرب العالمية الأولى–كان في الواقع صامداً وقويًا. ويبحث هيمنجواي في روايته موضوعات الحب والموت، وقوة الطبيعة الخلاقة، ومفهوم الذكورة، الى جانب موضوعات أخرى.

ويقال إن هيمنجواي كان يحاول في البداية كتابة رواية مختلفة تمامًا عما ستصبح فيما بعد "سوف تشرق الشمس "، لقد تخيل كتابًا يتم التعبير فيه عن "كامل الحياة "، بكل أشكالها وعلاقاتها المتشابكة. في نفس مسودة الفصل، وعن ذلك كتب في رسالة لصديقة الروائي سكوت فيتزجيرالد: "الآن عندما يقرأ أصدقائي هذا سيقولون إنه أمر مروع. ليس ما كانوا يأملون أو يتوقعون مني. قالت لي جيرترود شتاين ذات مرة إن الملاحظات لا تصنع أدبًا. حسنًا، سأفعل ذلك. هذه المرة فقط ستدخل جميع الملاحظات، وإذا لم تكن أدبا، على أي حال".

د. حسن القاضي



الفصل الأول

كان "روبرت كون" في وقت ما بطلاً للملاكمة –في الوزن المتوسط–بجامعة "برنستون"، وكان هذا اللقب يعني الشيء الكثير في نظر "كون"، مع أنه لم يكن يهتم اهتماماً حقيقياً برياضة الملاكمة، بل على العكس من ذلك كان يمقتها. ولكنه بذل جهداً مضنياً حتى أتقنها، ليقاوم الشعور بالنقص والخجل، لأنهم كانوا ينظرون إليه في تلك الجامعة على أنه يهودي، وكان لديه ثمة إحساس داخلي بالارتياح لأنه كان يستطيع أن يصرع أي إنسان يسيء إليه متى شاء. ولكن "كون" كان من الحياء وإيثار المسالمة بحيث لم يكن يقاتل أي إنسان إلا في ساحة الملعب.

ويعتبر "كون" أنبغ تلاميذ المدرب الشهير "كيلي" الملقب بالعنكبوت، ومن عادة العنكبوت أن يدرب سائر تلاميذه على الملاكمة باعتبارهم جميعاً من وزن الريشة، يستوي في ذلك عنده من كان يزن منهم مائة وخمسين رطلا، ومن يزن مائتين وخمسين رطلا. وقد استفاد من هذا التدريب، لأنه كان حقاً سريع الحركة جداً، وقد بلغ من براعته أن العنكبوت أرهقه بالتدريب إلى أن كسر له عظمة أنفه، فصار شكلها أفطس مثل أنوف المحترفين. مما زاد من كراهية "كون" للملاكمة، ولكنه في الوقت نفسه شعر بشعور عجيب من الراحة.

وفي السنة الأخيرة من دراسته أقبل على القراءة بإفراط شديد حتى ضعف بصره، فاضطر إلى اتخاذ نظارة، ولكني لم ألتق بأي زميل له في الصف يتذكر زمالته، أو حتى يتذكر أنه كان بطل الجامعة في الملاكمة للوزن المتوسط. وكان "روبرت كون" ينتمي من جهة أبيه إلى أسرة من أغنى أسر اليهود في نيويورك، ومن جهة أمه إلى أسرة من أقدم أسرهم، وعندما كان طالباً في المدرسة الثانوية،

لم يشعر بأية تفرقة في المعاملة بسبب أصله، وكان بارزاً في المباراة النهائية لكرة القدم بها، ولكنه ما أن دخل جامعة "برنستون" حتى شعر بوطأة التفرقة، ولما كان شاباً حييا مسالما، فقد ترسب في نفسه الأسى المر، ولم يجد لذلك الشعور مصرفا إلا في إتقان الملاكمة.

ومن دأبي أن أسيء الظن بجميع الصرحاء والبسطاء، ولاسيما حين تكون روايتهم عن أنفسهم محبوكة الأطراف، ومن ثم سيطر على ذهني أن "كون" ربما لم يكن في أي يوم من الأيام بطلاً للملاكمة في الوزن المتوسط، وأن فطس أنفه ربما كان نتيجة سقوط تحت حوافر حصان مثلاً، أو لأن أمه رأت في مدة حملها به منظراً أفزعها، أو لأنه اصطدم بطفل ما وهو صغير، أو لغير ذلك من الأسباب التي لا علاقة لها بالبطولة الرياضية. ثم تحرجت أخيراً أن أظلمه، فكلفت من تحرى الأمر من العنكبوت شخصيا. فإذا به لا يذكره فحسب، بل اهتم أيضاً بمعرفة أخباره.

وغادر "كون" الجامعة وهو يحمل في نفسه مركب نقص من النوع الحاد، فضلاً عن أنف أفطس. وكان طبيعياً أن يؤدي به ذلك إلى الزواج من أول فتاة أظهرت له الولاء. وقضى مع تلك الزوجة خمسة أعوام، أنجب منها خلالها ثلاثة أطفال، وبدد في غضونها الخمسين ألف دولار التي ورثها عن أبيه، ومن حسن الحظ أن أباه ترك عقاره لزوجته والدة "كون".

وزادت هذه السنوات التعيسة المملوءة بالخلافات الزوجية من إحساسه بالمرارة، حتى أنه حين عزم على هجر زوجته الثرية، فوجئ بفرارها مع رسام. فكان ذلك صدمة شديدة، جرحت كبرياءه. وبعد أن تم الطلاق، نزح "كون" إلى الشاطئ للترويح عن نفسه، وفي كاليفورنيا اتصلت أسباب التعارف بينه وبين حفنة من المثقفين، ولما كانت لديه بقية باقية من مبلغ الخمسين ألف دولار،

فسرعان ما تورط في تمويل مجلة للفنون الرفيعة، وأزهاه كل الزهو أن يظهر اسمه في صدر الصحيفة بين أسماء هيئة التحرير، ولكنه لم يلبث بمرور الوقت أن استأثر وحده برئاسة التحرير، وقد وجد في ذلك ما يرضي عقدة نقصه. لكنه أسف أسفاً شديداً عندما اضطر أمام فداحة الخسائر أن يتوقف عن إصدارها.

وفي تلك الفترة، كان قد ارتبط بعلاقة مع سيدة داعبها الأمل زمناً ما أن تتمكن من النهوض بالمجلة، فيذيع صيتهما معا بنجاحها، وفرضت شخصيتها القوية على الشاب الخجول، فانقاد لها كعادته، واعتقد أنه يحبها حقا. ولما تبينت السيدة أنه ليس بالإمكان إنقاذ المجلة في الفشل شعرت بشيء كثير من خيبة الأمل في "كون"، وقررت أن تحصل على أقصى ما يمكن أن تحصل عليه من صلتها به، فحرضته على الرحيل معها إلى أوروبا ليتفرغ للكتابة هناك.

ورحلا بالفعل إلى أوروبا، وأمضيا فيها ثلاثة أعوام. الأول منها قضياه في السياحة، والعامين الأخيرين قضياهما في باريس، حيث تعرف "كون" بصديقين: "برادوكس" و"أنا". أما "برادوكس" فصديقه في الأدب، وأما "أنا" فصديقته في لعبة التنس. أما السيدة التي سيطرت على "كون" فاسمها "فرانسيس"، ولما اتضح لها، في نهاية العام الثاني من تلك العلاقة، أن جمالها آخذ في الذبول، تغير على الأثر سلوكها نحو "كون" في التسلط العادي إلى ضرب من الاستغلال. مع التصميم على أن يتزوجها.

وفي تلك الأثناء كانت أم "كون" قد خصصت له راتباً، اعتقد أنه يبلغ نحو ثلاثمائة دولار في الشهر، وأعتقد أيضاً أنه في مدى عامين ونصف عام على الأقل لم ينظر "روبرت كون" إلى أية امرأة أخرى، لأنه كان ناعم البال تماما. ولولا الإحساس بالحسرة الذي يخامر كل أمريكي هاجر بلده وأقام في أوروبا. ويضاف إلى هذا أن "كون" اكتشف قدرته على الكتابة، وبالفعل أتم كتابة قصة

لم تكن في الحقيقة جديرة بالزوبعة النقدية التي أثارها النقاد عليها فيما بعد. هذا مع إقراري أنها قصة تافهة، وقد وزع وقته بحيث لا يجد السأم إلى نفسه سبيلاً. فكان يقرأ الكثير من الكتب، ويلعب "البريدج" والتنس، ويتمرن على الملاكمة في الأندية الخاصة بالعاصمة الفرنسية.

وقد أدركت حقيقته من مسلك صاحبته نحوه، ذات ليلة، بعد أن تناول ثلاثتنا العشاء معا في "الأفنيو"، ثم ذهبنا إلى مقهى "فرساي" لاحتساء القهوة، وبعد أن شربنا عدة كؤوس، أبديت رغبتي في الانصراف، وكان "كون" قد أبدى رغبته تلك الليلة في مغادرة المدينة للتمتع بنزهات خلوية سيراً على الأقدام –أنا وهو فقط– في إحدى عطلات الأسبوع القادمة، واقترحت أنا أن تستقل الطائرة إلى ستراسبورج، ومن هناك نذهب سيرا على الأقدام إلى "سان أوديل" أو غيرها من مناطق مقاطعة الألزاس الجميلة، وعززت رأيي قائلاً:

– إنني أعرف فتاة أمريكية تقيم باستراسبورج سوف تصحبنا لترينا معالم المدينة.

وإذا بي أشعر بقدم تركل قدمي تحت المائدة، وظننت أن المسألة صدفة واستطردت:

– وهي فتاة لطيفة عاشت هناك عامين وتعرف كل شيء عن استاسبورج.

وتلقيت ركلة أخرى، فتطلعت إلى جليسي، وإذا بي أرى وجه "فرانسيس" مربدا، عندئذ تداركت نفسي وقلت:

– ولكن لماذا بحق الشيطان نذهب إلى ستراسبورج؟ إن في وسعنا أن ننطلق إلى الأردين، أو إلى أي إقليم آخر!

فسرى عن "كون" ولم أتلق ركلة ثالثة تحت المائدة، واكتفيت بهذا، وألقيت على العشيقين تحية المساء وانصرفت. وتذرع "كون" بأنه يريد أن يشتري أحد

الصحف، وسار معي إلى رأس الشارع، وفي الطريق قال لي:

– لماذا قلت هذا عن الفتاة؟ ألم تر وجه فرانسيس كيف تغير؟

– وأي حرج في أن أذكر فتاة أمريكية أعرفها؟ وأي شأن لفرانسيس بهذا؟

– لا شيء يا صاحبي سوى أنه سيترتب على هذا ألا أستطيع الذهاب.

– لا تكن أبله.

– هي الحقيقة. أنت لا تعرف فرانسيس، أنها تغار من أية فتاة مهما كانت.

– أراك غداً إذن.

– نعم. طابت ليلتك يا جاك.

وانطلق عائداً، فقلت له:

– نسيت أن تشتري الصحيفة التي جئت من أجلها.

– هذا صحيح.

وذهبنا إلى كشك الصحف، وقبل أن ينصرف قال لي:

– أرجو ألا تكون غاضبا يا جاك؟

– كلا. ولماذا أغضب؟

– أراك إذن غداً في ملعب التنس.

ووقفت أرقبه وهو يمشي عائداً إلى المقهى، حيث تنتظره صاحبته والصحيفة التي لا حاجة له بها في يده. كنت أحبه، ولذا عز علي كثيراً أن أرى هذه السيدة تسومه هذا الاستبداد الذي ينغص عليه حياته.

الفصل الثاني

في ذلك الشتاء سافر "روبرت كون" إلى أمريكا، ومعه قصته الجديدة، وحظيت بالقبول لدى ناشر، وكان هذا هو المنفذ الذي تسلل منه "كون" متحرراً من سيطرة فرانسيس. ذلك أن نساء كثيرات في نيويورك توددن له، فلما عاد أدراجه إلى أوروبا كان الثناء الأدبي والتهافت النسوي قد أدارا رأسه، فركبه شيء لم يعهد فيه من قبل من الغرور، لما طرأ على آفاقه من اتساع مباغت. بعد أن عاش داخل "إطار" زوجته، ثم صاحبته سبع سنوات. وأنا لعلى يقين أنه لم يجرب الحب الحقيقي مرة واحدة، فزوجته السابقة استولت على زمامه وهو في دوامة الشعور المرير بالنقص والاضطهاد. فوجد في عطفها عليه بلسما مغريا لا قبل له بالإعراض عنه في دوامة الشعور المرير بالنقص والمهانة على إثر اكتشافه المؤلم أنه لم يكن كل شيء في حياة زوجته.

ومع أنه حتى بعد أن عاد من أمريكا لم يكن قد جرب الحب، فإن التغير الذي طرأ عليه كان مرده إلى أنه أحس بعدم استحالة اهتمام امرأة به، وأن رغبة حسناء في الانقطاع للحياة له وبجانبه ليست ضربا من الإعجاز. وزاد من خيلائه أنه لعب في نيويورك "البريدج" بمبالغ كبيرة، وربح بضع مئات من الدولارات، فعاد إلينا في باريس شامخ الأنف، يكثر من التشدق بمهارته، وكيف أن في استطاعته –لو شاء–أن يعيش في أرباحه في هذه اللعبة التي تحتاج إلى مهارة خاصة وبراعة في الحساب.

وفي ذات يوم رأيته يدخل إلى مكتبي، فقلت له:

– مرحبا بك يا روبرت. ما الذي جاء بك؟

– أتحب يا جاك أن تذهب إلى أمريكا الجنوبية؟

– لا أدري. ولكني لم أشعر يوما بالرغبة في الذهاب إلى هناك، ثم أن نفقات هذه الرحلة باهظة، وفي استطاعة المرء أن يرى كفايته من أهالي أمريكا الجنوبية هنا في باريس.

– ولكنهم ليسوا أهلها الحقيقيين.

– إنهم يبدون في نظري حقيقيين بما فيه الكفاية.

– أما أنا فقد ظللت طوال حياتي معلق الفؤاد برحلة من هذا الطراز. وأني لأخشى أن أهرم قبل أن أحقق بغيتي.

– إن في استطاعتك أن تذهب إلى أي مكان تشاء، فلديك مال وفير. ما في ذلك شك.

– أعلم هذا، ولكني لا أجد الجرأة على الرحيل.

– هون عليك إذن. فإن جميع الأقطار تبدو وكأنها صور متحركة.

– ما من أحد يعيش حياته كما يريدها يا صاحبي اللهم إلا مصارع الثيران.

– أنا لا أبالي بمن يصارعون الثيران، فحياتهم شاذة. وإنما مرادي أن أذهب إلى أمريكا الجنوبية لكي ننعم بالتجوال في براريها.

– ألم تفكر في الذهاب في رحلة صيد إلى أفريقيا الشرقية؟

– إنني على استعداد لأن أذهب معك إلى هناك.

– لا. أنني لا أرغب في الذهاب إلى هناك.

ومال بقامته إلى الأمام، وقال لي:

– اسمع يا جاك. ألم يخامرك ذات مرة الشعور بأن حياتك تسير على وتيرة

واحدة، وأنك لا تستفيد شيئاً منها؟ ألم تفطن إلى أنك قد سلخت في هذا نصف عمرك؟

– هذا شيء يساورني من وقت لآخر.

– ألا تدرك أنك بعد زهاء خمس وثلاثين سنة أخرى ستلقى حتفك؟

– ماذا دهاك اليوم يا روبرت؟

– لم أعد أهتم بشيء. فقد نبذت القلق.

– إني على كل حال أريد الذهاب إلى أمريكا الجنوبية.

– اسمع يا روبرت. أن الذهاب إلى هناك، وأنت على هذه الحالة المعنوية السيئة، لا يجديك شيئاً. ثم أن باريس مدينة جميلة، فلماذا لا تعيش فيها حياتك التي تبتغيها؟

– لقد سئمت نفسي باريس، وسئمت الحي اللاتيني أيضاً.

– ابتعد عن الحي اللاتيني. المهم على كل حال أن تدرك أن مشكلتك في نفسك التي بين جنبيك، وهذه يا صاحبي لا هرب لك منها أينما وليت وجهك، فجرب التجوال في أنحاء فرنسا وحدك، وضع نصب عينيك أن تغير حالتك النفسية. جرب.

– هذا لا يجدي. فقد جربت ذلك ذات ليلة، وقضيت ليلة بطولها وأنا أتسكع في شوارع باريس. فلم أجن من ذلك سوى أن شرطيا استوقفني، وطلب مني أوراقي لأنه ارتاب في أمري.

– ألم تتمتع بجمال باريس في الليل؟

– باريس. إن جمالها لا يعنيني.

ولم أجد لاستمرار النقاش جدوى، فأخذته وتوجهنا إلى مقهى نابولي الشهير، كي نتناول مشروبات فاتحة للشهية مما يتناوله الناس قبل الطعام، ولنشاهد المارة الذين تزدحم بهم شوارع باريس الكبرى عندما يأتي المساء.

الفصل الثالث

وذات ليلة من ليالي الربيع الدافئة، كنت جالساً في شرفة مقهى نابولي، بعد أن غادرني روبرت، وبنات الليل رائحات غاديات أزواجاً وفرادى باحثات عن لقمة العيش. ولفتت نظري إحداهن لجمال طلعتها الآسرة، وقد مرت بي إلى أن غابت عن نظري، ثم عادت أدراجها. وفي هذه المرة التقت عيوننا فأقبلت وجلست إلى مائدتي. وجاء الساقي، فطلبت كأساً من شراب "البرنو". وطلبت لنفسي مثله، وهو شراب قوي، فعجبت الفتاة لأمري، وكيف أقدم على احتساء مثل ذلك المشروب.

– لعلك ذاهب إلى سهرة صاخبة؟

– طبعاً. وأنت؟

– كل شيء جائز في هذه المدينة!

– ألا تحبين باريس؟

– كلا..

– لماذا إذن لا ترحلين إلى مكان آخر؟

– أي مكان آخر لن يكون أفضل من هذا.

وتجرعنا الكأسين، وللبرنو تأثير قوي يرفع الروح المعنوية فوراً، بيد أنه يهبط بها أيضاً بنفس السرعة إلى درك أدنى مما كانت فيه من قبل، وسرعان ما بدا الوجوم على الفتاة، فقلت لها:

– أليس في نيتك أن تدعيني لتناول العشاء على حسابك؟

فضحكت، وعندئذ أدركت لماذا حرصت ألا تضحك من قبل. ذلك أن أسنانها قبيحة. ولكنها وهي مغلقة الفم ذات وجه جميل، ودفعت الحساب. وانصرفنا، ثم ركبنا عربة يجرها حصان، فاخترقت بنا ميدان الأوبرا، ومرت في طريقها بمكتب "نيويورك هيرالد" ولهذا المكتب واجهة غاصة بالساعات، فسألتني الفتاة:

– لماذا يستخدمون كل هذه الساعات؟

– لأنها تدل على التوقيت في أنحاء أمريكا.

وانطلقت العربة بنا إلى أن دخلت من بوابة كبيرة إلى حدائق التويلري. وكانت الظلال التي تلقيها الأشجار كثيفة فالتصقت الفتاة بصدري، وطوقتها بذراعي. فرفعت رأسها إلي لأقبلها، ثم لمستني بإحدى يديها فأبعدت تلك اليد قائلاً:

– لا عليك.

– ماذا بك؟ أمريض أنت؟

– أجل.

– لا تكترث. جميع الناس مرضى. أنا أيضاً مريضة!

وخرجت بنا العربة أخيراً إلى الشوارع العامة المضيئة، وعبرت نهر السين. ثم سارت في شارع الآباء المقدسين، وقطعت الصمت قائلة لي:

– ما كان ينبغي أن تشرب البرنو، وأنت مريض!

– ما اسمك؟

– جورجيت. وأنت؟

– جاكوب.

– هذا اسم فلمنكي.

– وأمريكي أيضاً.

– ألست فلمنكيا؟

– كلا. بل أمريكيا

– هذا أفضل. فأنا لا أحب الفلمنك.

وفي هذه اللحظة كنا قد وصلنا إلى المطعم، فطلبت إلى الحوذي أن يتوقف. ونزلنا، ولكن منظر المطعم لم يرق لجورجيت.

– إنه مطعم من المطاعم الرديئة.

– فلنذهب إلى مطعم آخر.

وسكتت الفتاة ودخلنا، وعبرنا القاعة إلى حجرة داخلية صغيرة، وسرى شيء من البهجة إلى جورجيت عندما جيء بالطعام، وقالت:

– المطعم ليس فاخرا. ولكن الطعام لا بأس به.

وجاء الساقي بالنبيذ، وشربنا زجاجتين. وألقت جورجيت تكتة، ونسيت أن تحتاط لنفسها، فضحكت ضحكة كشفت عن أسنانها المشوهة، وقالت لي:

– أنت إنسان لطيف. ومن المؤسف أنك مريض. ماذا بك على كل حال؟

– أصبت في الحرب.

– أوه يا لتلك الحرب الملعونة!

وكان من الممكن أن تستمر في الكلام عن الحرب وويلاتها، لولا أن هذا

الحديث يضجرني. وسرى عني في تلك اللحظة أني سمعت صوتاً يناديني من الحجرة الأخرى:

– بارنز. جاكوب. بارنز.

فقلت لها موضحاً الموقف:

– هذا صديق يناديني.

ذهبت إلى الحجرة الأخرى، فوجدت مجموعة من الصحاب جلوساً إلى مائدة كبيرة: "كون" و"فرانسيس" و"برادوكس" وزوجته وبضعة أشخاص لا أعرف منهم أحداً، وقال لي "برادوكس":

– ألا تنوي أن تأتي معنا إلى المرقص؟

– مرقص. أي مرقص؟!

وصاحت "فرانسيس" من آخر المائدة:

– لابد أن تأتي معنا يا جاك. سنذهب كلنا.

وقال برادوكس:

– سيأتي معنا طبعا. اجلس وأشرب معنا القهوة يا "بارنز".

وقالت زوجته وهي تضحك:

– وهات صديقتك.

– شكراً لك، سآتي بها فوراً.

وعندما عدت إلى الحجرة الأخرى. سألتني جورجيت:

– من هم أصدقاؤك هؤلاء؟

– كتاب وفنانون

– هناك الكثيرون من هذا الصنف في الضفة الأخرى للنهر.

– أجل أكثر مما يجب!

– هذا رأيي أيضاً ومع ذلك فمنهم من يربحون مالاً كثيراً.

– أوه طبعا.

وكنا قد فرغنا من العشاء والشراب، فقلت لها:

– هيا بنا سنتناول القهوة مع بقية الجماعة.

وفتحت جورجيت حقيبتها ثم أصلحت من زينة وجهها وشفتيها ووضع قبعتها، ثم نهضت معي. ومضينا إلى الحجرة الأخرى، ونهض لمقدم صاحبتي "برادوكس" وبقية الرجال، فقلت:

– اسمحوا لي أن أقدم لكم خطيبتي الآنسة "جورجيت ليبلان".

وابتسمت "جورجيت" وفمها مقفل، وصافحنا الرفاق، وقالت مسز "برادوكس":

– هل تمتين بصلة قرابة إلى المغنى "جورج ليبلان"؟

– لا أعرفه.

– ولكن اسم عائلتيكما واحد، ولذا ظننت.

– كلا إطلاقاً اسمي جورجيت أوبان.

– ولكن مستر "بارنز" قدمك لنا الآن باسم الآنسة "ليبلان"؟

– أنه يمزح.

– كان الأمر مزاحاً إذن؟

– أوه طبعاً.

وبعد الفراغ من القهوة، نهضنا جميعاً إلى المرقص الذي اختاره "برادوكس" وهو مرقص شعبي مما يؤمه العمال طوال الأسبوع إلا ليلة واحدة، يخصص فيها المرقص للمباريات التي يعقدها "برادوكس"، ولما وصلنا إلى هناك، وجدنا المكان خالياً إلا من شرطي جالس أمام الباب ومن صاحب المرقص وزوجته، ثم هبطت ابنتها عند دخولنا، وسألتنا ماذا نحب أن نشرب، وتناول أبوها "الأوكورديون" وشرع في العزف. وعلى هذه الأنغام رقص الجميع، ولم ينتظروا مقدم بقية المتبارين، وكنا نتصبب عرقاً من حرارة الجو، وأظهرت جورجيت ضيقها فنصحتها بخلع القبعة. ثم لبت دعوة أحد أفراد المجموعة للرقص، وتوجهت أنا إلى البار.

هناك كان الجو حاراً جداً، ولكن صوت الموسيقى كان لطيفاً للغاية. وطلبت زجاجة بيرة، ووقفت أجرع منها في فرجة الباب التماساً لما عسى أن يأتي من الشارع من أنفاس الهواء، وإذا بسيارتي أجرة تقبلان وتقفان أمام الباب.

وهبط من سيارتي الأجرة بعض الشبان. فريق منهم يرتدي صدارات خفيفة، والفريق الآخر يرتدي القمصان. واستطعت أن أتبين في ضوء اللافتة أيديهم المشذبة الأظافر، وشعرهم المصفف اللامع يفوح منه العطر، ونظر الشرطي الواقف بالباب نحوي، وابتسم ابتسامة ذات مغزى. ودخلت هذه المجموعة المرقص، وهم يتكلمون ويكثرون من الإشارات والتعبير بملامح وجوههم. وكانت معهم "بريت"، في ذروة فتنتها، ويبدو أنها في غاية الانسجام معهم.

ولمح أحدهم جورجيت. وقال:

– أؤكد لكم أنها عاهرة. إنني ذاهب لمراقصتها، راقبني يا "ليت".

وقال له "ليت" وهو شاب أسمر طويل:

– لا تتهور.

– لا تخف علي.

وتملكني شعور بالغضب، فمنظرهم كان يثير غضبي، مع أن المفروض فيهم أنهم ظرفاء وأن المرء ينبغي أن يتسامح معهم. ولكني كنت أغلي من شدة الغيظ منهم، وأشتهي أن أنقض على أحدهم فأحطم فيه ذلك الكيان الفوار بالعنفوان.

ولم أفعل شيئاً من ذلك، بل عبرت الشارع. ودخلت حانة أخرى شربت فيها زجاجة ثانية من البيرة، ولما لم يعجبني طعمها شربت كأساً أسوأ منها من الكونياك فزاد ضيقي. وعدت إلى المرقص لأجد "جورجيت" تراقص شابا من أولئك الرقعاء. وما إن توقفت الموسيقى حتى "استلمها" شاب آخر وراقصها، وأدركت أنهم قد وضعوا أيديهم عليها، وأنهم سوف يراقصونها جميعاً إلى نهاية السهرة.

وجلست إلى المائدة التي كان "كون" جالساً إليها، أما "فرانسيس" فكانت ترقص، وأقبلت مسز "برادكوس" ومعها شخص قدمته إلينا باسم "روبرت برنتس" وهو من نيويورك ومن الروائيين الجدد الصاعدين، وفي كلامه لكنة انجليزية، فدعونه لاحتساء كأس، فطلب مشروباً خفيفاً. ثم تحدثنا في الأدب، وعن باريس بصفة عامة، وكنت أنا في الواقع سكراناً بما يكفي للكلام باستهانة شديدة، ولم ألبث أن تركته واتجهت إلى حلبة الرقص بغير استئذان،

فلحقت بي مسز "برادوكس"، وقالت لي:

– لا تهتم كثيراً يا "جاك" بما قاله "روبرت"، فما هو طفل لم تصقله الحياة بعد.

– لست حانقاً عليه.

– إذن لماذا قمت هكذا فجأة؟

– كدت ألقي ما بجوفي.

ووقفت مسز "برادوكس" بجواري، وراحت تتطلع إلى الراقصين في الحلبة. فرأت "جورجيت" وهي ترقص بين ذراعي شاب طويل القامة من تلك المجموعة الرقيعة، فقالت لي:

– أرى أن خطيبتك تحظى بنجاح عظيم.

– جدا.

وعندئذ أقبل "كون" نحوي، وقال لي:

– تعال يا "جاك" واشرب كأساً.

وسرنا نحو السيارة، وهناك قال لي:

– ماذا بك يا "جاك"؟ أراك مهموما.

– ليس بي شيء. ولكن هذا المكان في مجموعه يزعجني.

وأقبلت "بريت" إلى البار وقالت:

– سلاماً أيها الفتيان.

– مرحبا بك يا "بريت". لماذا لا أراك سكرانة؟

– لن تراني سكرانة بعد الآن.

وطلبت من الساقي براندي بالصودا.ووقفت معنا وفي يدها الكأس، ورأيت "كون ينظر إليها بإمعان، وكانت هذه النظرة تنطوي على لهفة شديدة.

– أما "بريت" فقد كانت في غاية الفتنة والجمال. وقد عقست شعرها إلى الخلف على طريقة الغلمان، وكانت ترتدي ثوباً من "الجرسيه" الضيق يبرز مفاتن جسمها، ويلهب خيال الناظر إليه. وقلت لها:

– يا لها من صحبة بديعة تلك التي تنعمين بها يا "بريت".

– أليسو ظرفاء حقاً؟ وأنت أيها العزيز؟ أين التقيت بها؟

– في مقهى نابولي.

– وهل قضيت معها أمسية جميلة؟

– لا تقدر بقيمة..!

وضحكت "بريت" وقالت:

– أنت مخطئ يا "جاك". ما كان ينبغي لك أن تأتي بها إلى هنا، إنها إهانة صارخة للجميع. انظر إلى وجه "فرانسيس".

– هذا كلام يدل على أنك لست سكرانة.

– أليس كذلك. على كل حال عندما يكون الإنسان مع مجموعة من هذا الطراز لا خوف عليه من الإفراط في الشراب.

وعزفت الموسيقى، فقال "كون":

– هل لك أن تمنحيني هذه الرقصة يا ليدي "بريت"؟

– لقد وعدت "جاك" أن أرقص معه هذه الرقصة.

ونظرت إلي وضحكت، وهي تقول:

– حقاً يا "جاكوب" أن لك اسماً تفوح منه رائحة العهد القديم.

فقال لها "كون":

– وما قولك في الرقصة التالية؟

– سننصرف بعد هذه الرقصة مباشرة، فنحن على موعد في مونمارتر.

وأثناء الرقص، نظرت من فوق كتف "بريت" إلى "كون" فرأيته واقفاً أمام البار شاخص النظرات إليها يتتبع جميع حركاتها، فقلت:

– مرحى يا "بريت". لقد كسبت ولهاناً جديداً بك. أعتقد أنك تشعرين بالسعادة كلما انضم رقم جديد إلى القائمة!

– لا تتكلم كالأبله!

ورقصنا برهة صامتين. وكنت سعيداً رغم شدة الحر، ومررنا أثناء الرقص بجوار "جورجيت" وهي تراقص شاباً آخر.

– ماذا قام برأسك حتى جئت بها إلى هنا؟

– لست أدري. خطر لي أن آتي بها ففعلت.

– هيا بنا ننصرف ولا تقلق عليها، فهي مع من سيهتمون بأمرها على خير حال.

– هل تريدين الانصراف حقاً؟

– وهل كنت أطلب إليك ذلك لو لم أكن أريده؟!

وغادرنا حلبة الرقص، وتناولت معطفي الواقي من المطر من فوق المشجب، وارتديته، وانتظرتني "بريت" أمام البار، ورأيت "كون" يتحدث إليها. وقصدت أنا إلى صاحب الصالة وطلبت مظروفاً، وأخرجت من جيبي ورقة من

ذات الخمسين فرنكا، ووضعتها داخل المظروف وألصقته. ثم أعطيته لزوجة صاحب المرقص قائلاً:

– إذا سألت عني الفتاة التي أتيت الليلة معها، أرجو أن تعطيها هذا المظروف. أما إذا انصرفت مع أحد هؤلاء السادة الذين تراقصهم، فأرجو أن تحتفظي لي به عندك.

– مفهوم يا سيدي. هل تنصرف بهذه السرعة؟

– نعم.

وخرجت من الباب. وكان "كون" لم يزل منهمكاً في الحديث إلى "بريت" فألقت إليه بتحية المساء وتأبطت ذراعي، وكذلك حييته أنا أيضاً، وطفقنا نبحث عن سيارة أجرة. وقلت للسائق أن يمضي بنا إلى حدائق "مونسوري" وأن يدخل بنا إليها، واضطجعت "بريت" في ركن السيارة، وجلست أنا ملتصقاً بها.

وما إن انطلقت السيارة حتى قالت "بريت":

– أوه يا حبيبي، كم كنت تعسة.

الفصل الرابع

وصعدت بنا السيارة التل، واجتازت ميداناً كثير الأضواء. ثم دخلت طرقا مظلمة. وبعد كثير من الصعود والهبوط وجدنا أنفسنا في شارع مملوء بالحانات المفتوحة على الجانبين، وكانت "بريت" قد خلعت قبعتها، وألقت برأسها إلى الوراء. فرأت بكل وضوح وجهها في ضوء الأنوار الساقطة من الحانات والمتاجر التي تفتح أبوابها إلى ساعة متأخرة جدا.

كان وجهها ناصع البياض، وعنقها الممدود يبدو مفرط الطول. فلما دخل بنا السائق منطقة أخرى معتمة قبلتها، فالتصقت شفاهنا برهة. ثم زفرت "بريت" وأشاحت بوجهها، ولاذت بالركن القصي، وقد أطرقت برأسها إلى الأرض.

– لا تلمسني. أرجوك لا تلمسني.

– ماذا جرى؟!

– لم أعد أستطيع الاحتمال أكثر من هذا.

– أوه "بريت".

– لا تلمني. ولتعلم أني لا أستطيع أن احتمل لمساتك، افهمني يا حبيبي. أرجوك.

اعتدلت في جلستها، وطوقتها بذراعي. وألقت بكل ظهرها على صدري، وران علينا هدوء وسكون. وأنشأت بعد برهة تنظر في أعماق عيني، فقلت لها:

– ليست لنا في الأمر حيلة.

– لست أدري. أنا على كل حال لا أريد أن أمر بهذه المحنة الجهنمية مرة أخرى.

– الأفضل لنا أذن ألا نلتقي. يحسن أن نظل متباعدين.

– ولكن هذا مستحيل يا حبيبي. فأنا لا أطيق البعد عنك.

– هذا شيء مضحك جداً. ومع هذا فالوقوع في شارك الحب لا يخلو من بهجة.

– أتعتقد هذا حقاً؟

– لست أعني ما تظنين. ولكن الحب شيء رائع مهما كانت الحال.

– كلا يا "جاك". أنا لا أراه شيئاً ساراً بهيجاً. بل أراه على العكس شيئاً قاسياً.

– جميل على كل حال أن يرى كل منا صاحبه.

– كلا يا "جاك". لا أعتقد هذا.

– ولكنك منذ لحظة واحدة قلت إنك تريدين هذا وتستمتعين به.

– بل قلت إنه لا غنى لي عنه. أنه عذاب لا حيلة لي في دفعه!

وكنا نجلس متباعدين كأننا غريبان، وعن يميننا حدائق مونسوري" واستدار نحونا السائق وسألنا:

– إلى أين تريدان الآن الذهاب؟

ونظرت إلى "بريت" متسائلاً، فأشاحت وقالت:

– إلى مقهى "سلكت".

وقلت للسائق:

– مقهى "السلكت" في شارع مونبارناس..

واتجهت السيارة هابطة التل، وكانت "بريت" تنظر إلى الأمام. إلى أن دلفنا إلى طريق "راسباي" وبدأت أضواء مونبارناس للعيان، فقالت لي بلهجة جادة:

– هل يضايقك كثيراً أن تجيبني إلى طلب لي الآن؟

– لا تكوني بلهاء. اطلبي ما تشائين!

– قبلني مرة أخرى قبل أن نصل إلى هناك!

وعندما وصلت السيارة إلى المقهى، نزلت منها ونقدت السائق أجره، ثم نزلت "بريت" وهي تتم ارتداء قبعتها ومدت يدها لتستند إلى عند الهبوط، فوجدتها ترتجف، وسألتني:

– هل يبدو منظري فظيعاً جداً؟

ثم أرخت قبعتها فوق عينيها، ودخلت إلى البار مباشرة. وإذا بنا نجد هناك جميع أفراد المجموعة التي كانت في المرقص وحيتهم "بريت" في مرح متقن قائلة:

– مرحى أيها الفتيان. أريد أن أشرب كأساً.

وعندئذ انبرى يوناني يحترف الرسم، يزعم نفسه دوقاً. ولكن الجميع ينادونه باسم "زيزي" فشق إليها الزحام، وقال لها بحرارة:

– عندي شيء رائع أريد أن أفضي به إليك.

– أهلا بك يا زيزي.

– أريد أن أقدم لك صديقاً.

وشق الصفوف رجل بدين، وقدمه زيزي:

– يا كونت "ميبوبوبولس" هذه هي الليدي آشلي.

وقالت بريت:

– كيف حالك؟

– على ما يرام، وأنت؟ هل تستمتعين بقضاء وقت طيب في باريس؟

– للغاية.

– باريس بلد جميل حقاً يا سيدتي.

وفي هذه اللحظة ناداني "برادوكس" قائلاً:

– تعال يا "بارنز" واشرب معي شيئاً. إن صاحبتك اشتبكت في مشاجرة عنيفة جداً.

– وعم أسفرت المشاجرة؟

– أخذها أحدهم وذهب إلى مسكنه، لماذا لا تشرب شيئاً؟

– شكراً لك. لابد لي من الانصراف. هل رأيت "كون"؟

وتطوعت مسز "رادوكس" بالجواب:

– عاد إلى البيت مع "فرانسيس".

وقال "برادوكس":

– يا للفتى المسكين. أنه يبدو في نظري مهموماً.

وقالت مسز "برادوكس":

– وهذا اعتقادي أيضا.

– والآن أريد أن انصرف. طابت ليلتكما.

وألقيت تحية المساء على "بريت" في البار، وكان الكونت قد طلب شمبانيا، فقال:

– هل لك يا سيدي أن تشرفنا وتشاركنا كأساً من الخمر؟!

– لا. شكراً جزيلاً لك، فلابد لي من الانصراف.

فقالت "بريت":

– أمنصرف أنت حقاً؟

– أجل. فإني أشعر بصداع شديد.

– هل سأراك غدا؟

– تعالى إلى مكتبي وقتما تشائين.

– ألا نتقابل في مكان آخر؟!

– إذن أين تريدين أن ألقاك؟!

– في أي مكان تحدده في نحو الخامسة.

– ليكن المكان إذن في الجانب الآخر من المدينة.

– وهو كذلك. سأكون في "كريون" في الخامسة.

– اجتهدي أن تأتي.

– لا تقلق. وهل خذلتك في أي يوم من الأيام؟

– هل لديك أنباء من "مايك"؟

– وصلني منه اليوم خطاب.

الفصل الخامس

بعد أن خرجت من المقهى، اتجهت نحو طريق "سان ميشيل"، ولم تكن المسافة طويلة، ووجدت النور في حجرة البوابة، فطرقت الباب مطمئناً إلى أنها يقظانة، وتناولت منها بريدي، وتمنيت لها ليلة سعيدة، ثم صعدت إلى الجناح الذي أسكنه.

كان البريد عبارة عن خطابين وبضعة صحف، وقلبتها في ضوء مصباح من الغاز بحجرة المائدة، وكان الخطابان من الولايات المتحدة، وأحدهما قائمة حساب من المصرف. ومنها عرفت أن رصيدي يبلغ ٢٤٣٢ دولاراً و٦٠ سنتا، فأخرجت دفتر شيكاتي وخصمت من المبلغ أربعة شيكات سحبتها منذ أول الشهر، واتضح بعد ذلك أن حقيقة حسابي: ١٨٣٢ دولاراً لاغير ، فسجلت هذا الرقم حتى لا أقع في خطأ. أما الخطاب الآخر، فكان إخطار زواج شابين لا أعرف عنهما شيئاً في مدينة بالولايات المتحدة، وإن كنت قد أدركت من الاسمين أنهما من الكاثوليك.

وأضأت النور بجوار فراشي، وفتحت كل النوافذ الكبيرة على سعتها. وكان الفراش بعيداً عن النوافذ، فجلست فوق حافته وخلعت ثيابي، وفي الخارج كانت قافلة من العربات تعبر فوق خطوط الترام حاملة الخضروات إلى السوق فترتفع لها ضجة ضخمة يستعصي معها النوم. وأثناء خلع ثيابي لم أستطع أن أقاوم رغبتي في التطلع إلى صورة جسمي العاري في المرآة الموضوعة على حسب التقاليد الفرنسية أمام الفراش مباشرة. ثم ارتديت بيجامتي ودخلت فراشي، وتناولت الصحيفتين الخاصتين بمصارعة الثيران، وفككت عنهما الأغلفة،

وإحداهما لونها أصفر، والأخرى لونها برتقالي. ولكنهما تحتويان على نفس الأنباء، ولذا فأيهما قرأتها أولا سوف تفسد على لذة الجديد في الأخرى.

ولما كنت أعلم أن صحيفة "توريل" هي أحسن الاثنتين تحريراً، فقد بدأت بها، ومضيت في قراءتها حتى أتيت عليها كلها، بما في ذلك بريد المحرر والإعلانات، ثم أطفأت المصباح لعلي أستطيع أن أنام. ولكن ذهني بدأ يعمل دائراً في الحلقة عينها، حلقة الأسى المرير، والحق أن ذلك الجرح اللعين لا يغرب عن بالي. وكيف يمكن أن يغيب مثل هذا الأمر المعضل؟

وفي ذلك المستشفى الإيطالي، كنا جماعة من الجنود مصابين بنفس المصيبة –أقصد نفس الجرح–وصارت هذه المسألة أضحوكة في حينها، حتى أننا فكرنا وقتئذ أن تكون لنا نقابة خاصة بنا. ولست أدري في الوقت الحاضر ماذا جرى للباقين –أقصد الطليان–وأني لأذكر يوم جاء ضابط الاتصال –وهو برتبة كولونيل–لزيارتي بعد زوال الخطر، فقد كان الأمر مضحكاً للغاية. كنت ملفوفا في الضمادات، ولكنهم كانوا قد أخبروه نبأ جرحي الطريف، وإذا بالرجل الطيب يلقي تلك الخطبة المدهشة.

– أنت أيها الأجنبي، أيها الانجليزي، (وكل أجنبي كان وقتئذ في نظر الطليان انجليزيا) قد بذلت في سبيل إيطاليا ما هو أعظم وأجل من حياتك نفسها.

– يا لها من كلمة.

كم كنت أتمنى أن تكتب بحروف من نور كي أعلقها في المكتب.

ولم يضحك الرجل وهو يقولها. كلا، بل كان جاداً. لقد وضع نفسه في موضعي على ما أعتقد، وراح لهذا يردد:

– يا لها من مصيبة. يا لها من كارثة.

وأنا من جانبي لم أتبين المغزى الكامل للكارثة بل حاولت بقدر الإمكان أن أحمل الموضوع كله على محمل الهزل كي لا أزعج الناس بهمومي. ولا أعتقد أنني كنت حريا أن أهتم، لو لم ألتق على ظهر السفينة التي "شحنوني" فوقها إلى انجلترا بـ "بريت". ويغلب على ظني أنها –كعادتها–كانت متعلقة بالحصول على ما لا سبيل إلى الحصول عليه، فمن الناس من هذا دأبهم. إلا فليذهب جميع الناس إلى الجحيم.

وظللت راقداً أفكر، ولم أجد في النهاية بدا من مواجهة الموضوع بصراحة، وساقني ذلك إلى التفكير في "بريت"، وإذا ببقية المسائل تتبخر، وتصبح "بريت" هي كل ما يشغل ذهني، وانتهى الاضطراب. وصار ذهني أشبه ببحر هادئ، أمواجه رقيقة ناعمة. وفجأة طفقت أبكي. وبعد قليل، شعرت بتحسن كبير، ورقدت في فراشي أصغى للضجة التي تحدثها عربات الخضر، ثم استغرقت في النوم.

واستيقظت فجأة على صوت شجار، وأنصت. وخيل لي أن أحد هذه الأصوات ليس بغريب علي فارتديت "الروب" واتجهت صوب الباب. وإذا بالبوابة تتكلم بصوت غاضب أسفل السلم، كان واضحاً أنها غاضبة جدا، وسمعت أسمي يتردد وناديتها فردت صائحة من أسفل:

– أهذا أنت يا مسيو "بارنز"؟

– نعم. هذا أنا.

– ها هنا امرأة أيقظت الشارع كله، في هذا الوقت المتأخر من الليل. إنها تقول إنها لابد أن تراك، وقد أكدت لها أنك نائم.

وعندئذ سمعت صوت "بريت". وكنت وأنا نصف نائم أظن أنها "جورجيت". ولست أدري لماذا خطر لي ذلك، فما كانت هذه الفتاة لتعرف عنواني.

– هل لك أن تدعيها لتصعد؟

وصعدت "بريت" السلم. وأدركت لأول وهلة أنها مخمورة تماماً. وبادرتني بقولها:

– أعلم أن هذا شيء سخيف جدا. ولكنك لم تكن نائما. أليس كذلك؟

– ماذا تظنينني كنت أصنع إذن؟

– لا أدري. كم الساعة الآن؟

ونظرت إلى الساعة، كانت منتصف الخامسة تقريباً، وقالت "بريت":

– لم تكن عندي أي فكرة عن الساعة. اسمع. هل في وسع زائرتك أن تجلس؟ لا تغضب يا حبيبي. كنت مع الكونت، تركته منذ لحظة. هو الذي أوصلني إلى هنا.

وقلت لها وأنا آتي بالأكواب وزجاجات البراندي والصودا:

– وأي الناس هو؟

– لا تصب لي إلا شيئاً قليلاً. لا تحاول أن تجعلني أسكر. ذلك الكونت لطيف للغاية. أنه على شاكلتنا تماماً.

– وهل هو كونت حقا؟

– إليك البيان بكل هذه التفاصيل. إنه أهل لهذا اللقب على كل حال، وهو يعرف معلومات لا حصر لها عن سائر الناس، ولا أدري كيف حصل عليها كلها، وهو يملك عدداً كبيراً من متاجر الحلوى في الولايات المتحدة.

– وأين ذهبت معه؟

– إلى كل مكان. وأتى بي الآن إلى هنا. توا. وعرض عشرة آلاف دولار كي أذهب معه إلى "بياريتز" وقد أخبرته أن هذا ليس في وسعي، فكان ظريفاً جداً ولم يغضب. اعتذرت له بأني أعرف ناساً كثيرين في "بياريتز".

وضحكت "بريت" وشربت بقية كأسها، واستطردت:

– وعندئذ اقترح أن نذهب إلى "كان". وقلت له إني أعرف ناساً كثيرين في "كان". فاقترح "مونت كارلو"، فقلت إني أعرف ناساً كثيرين في "مونت كارلو" أيضاً. بل إنني أعرف ناساً كثيرين في كل مكان، ولذا طلبت منه أن يأتي بي إلى هنا، وقد فعل.

ونظرت إلي، وإحدى يديها على المائدة والأخرى مرفوعة بالكأس، ولما وجدتني صامتا قالت:

– لا تنظر إلي هذه النظرة. لقد أخبرته أني أحبك، وهذا أيضاً حق وصدق. لا تنظر هكذا. وقد تلقى الخبر بكل لطف ورقة، وهو يريد أن يقودنا بالسيارة للعشاء غدا مساء، فهل تحب أن تذهب؟

– ولم لا؟

– والآن أريد أن أنصرف.

– لماذا؟

– كنت أريد فقط أن أراك. فكرة سخيفة جدا. هل لك رغبة في أن ترتدي ملابسك وتنزل معي؟ إن سيارته تقف عند رأس الشارع.

– والكونت؟

– موجود بها. والسائق يرتدي كسوة رسمية. وفي عزمنا أن نتنزه في الخلاء، ثم نتناول الإفطار في غابة بولونيا، وقد اشترى لهذا الغرض ١٢ زجاجة من الشمبانيا. مع أصناف فاخرة من الطعام، فهل ترغب في ذلك؟

– عندي عمل لابد أن أؤديه وأنا يقظان، وأنا في هذه اللحظة متخلف عنكما كثيراً في الشراب. ولن يكون في وسعي أن ألحق بكما في جوكما المرح وأحلق معكما.

وقبلتها قبلة سريعة، ولكنها ارتجفت رجفة شديدة، وقالت:

– خير لي الآن أن أمضي. طاب ليلك يا حبيبي.

– في استطاعتك ألا تذهبي إن أردت.

– بل أريد أن أذهب.

وتبادلنا قبلة أخرى على السلم ونزلت معها. ثم صعدت بسرعة ووقفت أرقبها من النافذة. وهي تخترق الشارع الخالي من المارة صوب السيارة الليموزين الكبيرة الواقفة تحت المصباح المتوهج. وركبتها وانطلقت السيارة على الفور.

ودرت حول نفسي، وواجهني على المنضدة منظر الكأسين الفارغتين، ولكن في إحداهم بقية، إنها كأسي. وحملت الأكواب إلى المطبخ، ثم رجعت إلى حجرة نومي. وانسللت إلى السرير بعد أن ركلت الخف من قدمي. هكذا هي "بريت". هي بنفسها التي بكيت عليها منذ قليل. وتمثل لي منظرها، وهي تجتاز الشارع وتركب السيارة في تلك الساعة من الليل، كما رأيتها بعيني رأسي. وما هي إلا لحظة حتى صرت في جحيم من العذاب. ومن السهل أن يتظاهر الإنسان –بدافع ما يسمى الشعور بالكرامة– بأنه خامد العواطف لا يلين أثناء النهار، أما في الليل فللمسألة وجه آخر!

الفصل السادس

وفي الصباح سرت في شارع "سوفلر" حيث تناولت القهوة مع شيء من الكعك، وكان صباحاً جميلاً. والأشجار التي في حدائق لوكسمبرج مزهرة والطقس يبشر بيوم حار، وطالعت الصحف وأنا أشرب قهوتي وأدخن السجائر. وكانت بائعات الزهور يفدن من السوق بأحمالهن العطرة، ويقمن بتنسيقها كشأنهن في كل صباح، والطلاب رائحون وغادون إلى مدرسة الحقوق أو إلى السوربون، وعربات الترام تملأ الشارع، وهي مكدسة بالذاهبين إلى أعمالهم.

وركبت سيارة من سيارات الأوتوبيس، ووقفت على الإفريز الخلفي حتى بلغت ميدان المادلين. ومن ميدان المادلين سرت على قدمي إلى ميدان الأبرا، ومن هناك إلى مكتبي. وهناك طالعت سائر الصحف الصباحية الفرنسية، ودخنت بضع سجائر، ثم جلست إلى آلتي الكاتبة وأنجزت عملا مرضيا. وفي الساعة الحادية عشرة ذهبت إلى وزارة الخارجية في سيارة أجرة، ووجدت هناك نحو ١٢ مراسلاً أتوا مثلي لحضور المؤتمر الصحفي، ولم يتمخض المؤتمر عن أنباء تستحق الذكر، واشتركت عند العودة مع الزميلين "وولسي" و"كرام" في سيارة أجرة واحدة، وأصررت على دفع نصيبي في أجرها، وصعدت إلى المكتب بالمصعد، فوجدت "كون" في انتظاري فبادرني قائلا:

– ألست ذاهباً لتناول الغداء يا "جاك"؟

– نعم. دعني أولاً أرى هل هناك من جديد؟

– وأين تريدنا أن نأكل؟

– في أي مكان تشاء.

– ما رأيك في مطعم "ويتزل"؟ هناك مشهيات بديعة.

وفي المطعم جاءنا الساقي بالبيرة المثلجة جدا، ومعها ١٢ طبقا من المشهيات.

– وسألت "كون":

– هل استمتعت بسهرة الأمس؟

– كلا. لا أعتقد هذا.

– وكيف حال الكتابة؟

– شر حال. أن الكتاب الثاني مستعص على الكتابة!

– هذا أمر يحدث لكل إنسان.

– أعرف هذا. ومع ذلك أشعر بانزعاج.

– وماذا بشأن السفر إلى أمريكا الجنوبية؟

– أنا مصمم.

– ولماذا إذن لا تذهب؟

– وفرانسيس ؟!

– خذها معك.

– هي لا تريد الذهاب، فمثل هذه الرحلة ليست من النوع الذي يروقها، لأنها تحب أن تكون محاطة على الدوام بالناس.

– قل لها أن تذهب إذن إلى الجحيم.

– لا أستطيع. ففي عنقي التزامات كثيرة نحوها.

وأقصى طبق الخيار، وتناول شريحة من الرنجة، وقال:

– ما الذي تعرفه عن الليدي "بريت آشلي" يا "جاك"؟

– اسمها الرسمي الليدي "آشلي"، واسمها الشخصي "بريت" وهي فتاة ظريفة، وتستعد الآن للحصول على الطلاق، لتتزوج "مايك كامبل" الموجود في الوقت الحاضر في اسكوتلندا، لماذا تسأل عنها يا "كون"؟

– إنها امرأة جذابة إلى أقصى حد.

– وهل ترى ذلك..؟

– نعم. أن فيها شيئاً ما. لا أستطيع أن أحدده لك، ولكنه شيء راق ولطيف وممتاز. أنها تبدو خالية من الخداع والالتواء.

– يبدو لي أنك استلطفتها جدا.

– فعلا. ولا أستبعد أن أكون قد وقعت أسير هواها.

– أنها سكيرة. وهي مدلهه بحب "مايك كامبل" وسوف تتزوجه. ومن المنتظر أن يغدو في يوم من الأيام غنيا جدا.

– أنا لا أعتقد أنها سوف تتزوجه حقا.

– ولم لا ؟

– لا أدري. كل ما هناك أني لا أصدق هذا، وهل تعرفها أنت منذ زمن طويل؟

– نعم. فقد كانت متطوعة للتمريض في مستشفى كنت أعالج فيها أثناء الحرب.

– لابد أنها كانت طفلة في ذلك الوقت.

– إنها الآن في الرابعة والثلاثين.

– ومتى تزوجت من "آشلي"؟

– أثناء الحرب. وكان الشخص الذي أحبته قد توفي نتيجة مضاعفات الدوسنتاريا.

– إنك تتكلم عنها بمرارة وقسوة.

– آسف جدا. لم أقصد هذا، كنت فقط أريد أن أقدم لك الوقائع المجردة.

– لا. أنا لا أصدق أنها ستتزوج إنساناً لا تشعر نحوه بعاطفة الحب.

– ولكنها أقدمت على ذلك مرتين..!

– أنا لا أصدق هذا.

– إن كانت لا تعجبك إجاباتي عن أسئلتك السخيفة، فما عليك إلا أن تكف عن توجيهها إلي..!

– أنا لم أسألك عن هذا الذي قلته لي.

– لقد سألتني عما أعرفه عن "بريت آشلي".

– ولكني لم أطلب إليك أن تهينها..!

– اذهب إلى الجحيم.

وانتصب واقفاً، وقد اربد وجهه وبدا عليه الغضب. فقلت له:

– اجلس ولا تكن أبله.

– يجب أولا أن تسحب هذه العبارة.

– دع عنك أسلوب المدرسة الإعدادية.

– اسحبها.

– طبعا. لك ما شئت. أنا لم أسمع في حياتي كلها بمن تدعى "بريت آشلي"، ما رأيك في هذا؟ هل تعتبر هذا ترضية كافية؟

– كلا. ليس هذا ما عنيته.

– ما الذي تريده إذن؟

– ما قلته عن ذهابي إلى الجحيم.

– لا تذهب إلى الجحيم إذن إن كنت لا تريد، فنحن لم نكد نشرع في تناول الغداء.

وابتسم "كون" وجلس. وكان واضحاً أنه مسرور بعودته إلى كرسيه. فهو لم يدر بالضبط ماذا كان حريا أن يصنع لو لم ينته الأمر على هذا النحو بجلوسه، وقال:

– أنك تقول أشياء في منتهى القسوة والإهانة يا "جاك".

– أنا آسف جدا يا "كون". وما حيلتي في قذارة لساني؟! ولكني لا أعني الإساءة عندما أقول تلك الأشياء القذرة.

– أعرف هذا، وأنت في الحقيقة أحسن أصدقائي تقريباً.

وقلت في نفسي: كان الله في عونه، ولكني قلت بصوت مرتفع:

– انس كل ما قلته، وأني لآسف.

– لا بأس. كل ما هناك أني تأذيت لحظة.

– حسنا، والآن ما الذي تقترحه للأكل؟

وبعد أن فرغنا من الطعام، مشينا إلى مقهى "السلام" وشربنا القهوة. وكنت أحس إحساساً قويا أن "كون" يريد أن يعود إلى حديث "بريت" بيد أني حرصت على ألا أمكنه من ذلك. وتحدثنا في موضوعات كثيرة متباينة، وغادرته عائداً إلى مكتبي.

الفصل السابع

في تمام الساعة الخامسة، كنت في فندق "كريون" انتظر "بريت"، التي لم تكن قد وصلت بعد. وانتهزت الفرصة وكتبت عدة رسائل، وبلغت الساعة السادسة إلا ربعاً، فتوجهت إلى بار الفندق ولكني لم أجدها هناك أيضاً. فركبت سيارة أجرة إلى مقهى "سليكت"، مجتازاً قناطر نهر السين. ولكني أغمضت عيني وأنا أمر بشارع راسباي، لأني أمقت هذا الشارع وأنا راكب. وإن كنت لا أبالي أن أقطعه كله سائراً على قدمي. ولعل السبب في هذا أني قد أكون قرأت شيئاً ما عن هذا الشارع، فرسب في ذهني وأنا لا أدري.

وفي "السليكت" لم أجد بداخل البار إلا عدداً قليلاً جداً من الناس. وفي الخارج لم أر إلا "هارفي ستون"، وأمامه عدد كبير من الأطباق الصغيرة الفارغة، وقد استطالت لحيته، وقال لي:

– اجلس، فقد كنت أبحث عنك.

– ما المسألة؟

– لا شيء. كنت أبحث عنك فقط.

– هل كنت في السباق؟

– لا لم أذهب إلى هناك منذ يوم الأحد الماضي.

– وما آخر أنباء الولايات المتحدة؟

– لا شيء مطلقاً.

– ما الذي جرى؟

– لا أدري قطعت صلتي بهم كلهم قطعتها تماما، ومال بوجهه إلى الأمام

– أتريد أن تعرف شيئاً يا "جاك"؟

– نعم.

– أنا لم آكل شيئاً منذ خمسة أيام.

ورجعت بذاكرتي إلى الوراء بسرعة، فقد ربح مني ثلثمائة فرنك ونحن نلعب الزهر منذ ثلاثة أيام في بار نيويورك، وقلت له:

– ولكن لماذا لم تأكل؟

– لا نقود، ولا طعام. لم تصل النقود اللعينة من هناك. والغريب في الأمر يا "جاك" أني عندما أكون في مثل هذه الحالة أحب أن أكون وحدي تماماً. مثل القطط.

ووضعت يدي في جيبي، وقلت:

– هل تكفيك مائة فرنك يا هارفي؟

– نعم.

– هيا بنا إذن لنأكل شيئاً.

– لا داعي للعجلة. اشرب كأساً أولا.

– الأفضل لك أن تأكل.

– كلا. عندما أكون بهذه الحالة، لا أبالي أن أكلت أم لم آكل.

وشرب كأساً، وضم "هارفي" طبق مشهياتي إلى كومة أطباقه. وما هي إلا برهة حتى أقبل "كون". وعندئذ انصرف "هارفي". فقلت له:

– هل استطعت أن تكتب شيئاً بعد ظهر اليوم؟

- كلا. لم أستطع. إني أجد عناء شديداً في الكتابة.

أن الثقة الشديدة بالنفس، التي اكتسبها من رحلته الأخيرة إلى أمريكا، قد تبخرت، وأني لأخشى ألا أكون قد أظهرته في ضوء كاف حتى الآن، والسبب في ذلك أنه لم يكن واضحاً في وجداني. فما كان هناك شيء فيه يميزه عن سائر الناس، فهو لطيف المعشر، رشيق، يطيب للمرء أن يشاهده حين يلعب التنس، ويجيد لعب البريدج، وهيئته أشبه لأول وهلة بالطلاب في الجامعة، ولم أسمع منه في أي يوم من الأيام كلمة أو فكرة تدل على تفكير مستقل. وثيابه أيضاً لم تزل كثياب التلاميذ وأحداث الشبان، مع أنه تجاوز سن الشباب بالمعنى الدقيق للشباب، ولا أعتقد أنه يبالي بملبسه كثيراً.

وقد اكتسب تكوينه الظاهر من جامعة برينستون، أما داخليا فالأثر الأكبر في تكوينه للمرأتين اللتين كانت لهما فرصة السيطرة عليه، وها هو ذا يتعرض للمرأة الثالثة وتأثيرها القوي، وآية ذلك أنه بعد ذلك صار يهزم في التنس - الذي كان شديد الحرص على الغلبة فيه أما أضعف اللاعبين. ومهما يكن من أمر، فقد كنا جالسين على شرفة مقهى "سليكت" وحدنا، بعد أن غادرنا "هارفي" وقلت له:

- تعال إلى مقهى "ليلاس".

- أنا هنا على موعد؟

- في أية ساعة؟

- ستأتي "فرانسيس" الساعة السابعة والربع.

- هذه هي

وكانت فرانسيس قادمة نحونا عبر الشارع، وهي امرأة طويلة القامة جدا،

تمشي بطريقة تقتضي منها كثرة الحركة. ولوحت لنا بيدها وابتسمت، ولبثنا نرقبها وهي تقطع الشارع. وما أن وصلت حتى ابتدرتني قائلة:

– كم أنا سعيدة أن أجدك هنا يا "جاك"، فقد كنت أريد التحدث إليك في بعض الأمور.

وعندئذ ابتسم "كون" وقال لها:

– مرحبا بك يا "فرانسيس".

فأجابته بسرعة من غير أن تنظر إليه:

– هل أنت هناك؟

والتفتت نحوي، واستأنفت كلامها:

– مرت بي أخيراً أسوأ الأوقات، فهذا الشخص (وأشارت إلى "كون") لم يأت إلى البيت للغداء.

– لم يكن من المفروض أن آتي.

– أعلم هذا، ولكنك لم تذكر شيئاً للطاهية.

– وماذا صنعت أنت؟

– خرجت طبعا. وأنت يا "جاك" كيف حالك؟

– خير حال.

– كانت رائعة حقاً تلك الفتاة التي جئت بها معك بالأمس، ثم انصرفت مع تلك المدعوة "بريت".

فسألها "كون":

– ألا تروق لك؟

– أنا أراها فاتنة جدا. ألا تراها أنت كذلك؟

وسكت "كون" ولم يجب.

– اسمع يا "جاك". أريد أن أتحدث إليك، فهل لك أن تأتي معي لحظة إلى مقهى "الدوام"؟ ستبقى أنت هنا من فضلك يا "كون". هيا بنا يا "جاك".

واجتزنا معا ميدان مونبارناس، وجلسنا إلى مائدة، ومر بائع صحف فاشتريت منه "الباري تايمز" وفتحتها وقلت:

– ما المسألة يا "فرانسيس"؟

– أوه لا شيء.. كل ما هناك أنه يريد أن يتركني..

– ماذا تعنين؟

– لقد أخبر كل إنسان أنه يريد أن يتزوجني. وها هو ذا الآن لا يريد أن ينفذ وعده.

وما الذي جرى؟

– إنه يعتقد الآن أنه لم يعش كما يشاء بما فيه الكفاية، وكنت أعلم أن هذا سيحدث عندما سافر إلى نيويورك، وأنا طبعاً لا أريد أن أتزوجه إن كان لا يريد هو الزواج بي، لست مستعدة أن أتزوجه الآن بأي ثمن.. ولكن يبدو لي أن الأوان قد فات الآن للتراجع، بعد أن انتظرنا ثلاث سنوات، وها أنا ذا قد حصلت أخيراً على الطلاق..

ولم أقل شيئاً..

– وكنا على وشك أن نحتفل بهذه المناسبة، وإذا بنا نتشاجر وهذا سلوك

صبياني لا يليق.

– هذا حقا شيء يؤسف له..

– بل هذا من سوء الحظ..

– فعلا..

– لقد أضعت من عمري سنتين ونصف سنة، قضيتهما معه ولا أدري الآن إن كان يوجد رجل يرضى بالزواج مني، مع أنه كان في استطاعتي أن أتزوج أي رجل أشاء منذ سنتين.. هناك في "كان".. فجميع العجائز كانوا راغبين في الزواج مني، وكادوا يجنون بي.. أما الآن فلا أظن أني أستطيع الظفر بأحد منهم..

– بل أنت تستطيعين الزواج من أي رجل.

– لا فائدة من هذا الكلام، ولكن كل ما أرجوه منك ألا تدعه يدرك أنني تحدثت إليك في هذا الشأن.. وأنا مدركة تماماً ماذا يريد أن يصنع، أنه يريد أن يعود إلى نيويورك، وحده، ليكون موجوداً عندما يظهر كتابه الجديد، ويخلو له الجو هناك مع الفتيات الصغيرات.

– لا أعتقد أن هذا قصده حقا..

– أنت لا تعرفه كما أعرفه أنا يا "جاك".. أنا واثقة تمام الثقة مما أقول.. وهذا هو السبب في أنه لا يريد أن يتزوجني الآن، أنه يريد أن يحصل على نصر باهر بمفرده، وأن يجني ثماره وهو غير مرتبط بامرأة تذود عنه الصبايا الحسان!

وسكت برهة ثم قلت:

– هل تريدين العودة إلى المقهى؟

– نعم.. هيا بنا..

ورجعنا حيث كان "كون" جالسا يرمقنا باسما، فسألته "فرانسيس" بحدة:

– ما الذي يدفعك إلى الابتسام؟ أتشعر بمنتهى السعادة؟..

– إني ابتسم لمنظر الأسرار التي بينك وبين "جاك"..

– أوه.. أن الأسرار التي قلتها لـ "جاك" لن تكون عما قريب أسرارا على الإطلاق.. ولكني كنت حريصة فقط على أن أطلعه على الحقيقة بوجهها الصحيح.

– عم حدثته؟ عن رحلتك إلى انجلترا؟..

– أجل عن رحلتي إلى انجلترا.. و(على فكرة) يا "جاك" نسيت أن أخبرك أني ذاهبة إلى انجلترا.. "روبرت" قرر إرسالي إلى هناك، وسيعطني ٢٠٠ جنيه كي أقوم بزيارة أصدقائه وإن كان هؤلاء الأصدقاء لا يدرون شيئاً حتى هذه اللحظة عن هذه الزيارة..

ونظرت إلى "كون" وابتسمت، ولكن "كون" لم يكن في هذه اللحظة باسماً، واستطردت "فرانسيس":

– أجل أيها العزيز.. كنت ستعطيني مائة جنيه فقط، ولكنك كنت كريماً جداً وستعطيني ٢٠٠ جنيه.

– كيف يمكن يا "فرانسيس" أن تقولي شيئاً كهذا؟

– لا لزوم للمداورة.. أن الخطأ خطئي أنا، إذ كان ينبغي أن أدرك عندما نبذت سكرتيرتك في المجلة من أجل صحبتي أنك لابد أن تنبذني يوما ما.. أن "جاك" لا يعرف هذه القصة، فهل تريدني أن أخبره؟

– اسكتي يا "فرانسيس" بالله عليك..

وما أن سكتت حتى نهضت، وقالت:

– إلى أين أنت ذاهب يا "جاك"؟

– عندي موعد..

وركبت أول سيارة، وأعطيت السائق عنوان مسكني.

الفصل الثامن

وما إن هممت بصعود السلم حتى دقت البوابة زجاج باب مسكنها فتريشت، وأعطتني بضعة خطابات وبرقية، ثم قالت لي:

– هذا بريدك، وقد حضرت سيدة لزيارتك.

– هل تركت بطاقتها؟

– لا، وكان معها سيد أنها نفس السيدة التي جاءت إلى هنا ليلة أمس.
– وهل السيد الذي كان معها من أصدقائي؟

– لا أدري. أنه لم يحضر إلى هنا من قبل، وكان كريماً جدا، كريما لأقصى حد. وهي كانت في منتهى الظرف.

ووضعت البوابة رأسها على إحدى يديها، وراحت تهزها بسرعة للتعبير عن السكر، واستطردت:

– سأقول لك الحق يا مسيو "بارنز": لم أجدها بالأمس ظريفة أما الآن، في النهار، أؤكد لك أني أجدها على أفضل ما يرام. ومن عائلة كبيرة أيضاً. هذا شيء واضح.

– ألم تترك لي كلمة؟

– قالا إنهما سيعودان بعد ساعة.

– فليصعدا إلى فوق فور حضورهما.

– وهو كذلك يا مسيو "بارنز".

وكانت البوابة قبل احترافها لمهنتها، تدير محلا لبيع النبيذ في ساحات السباق. وقد تركت كل ما يتعلق بهذا العمل، وهي تمتاز بنظرتها الفاحصة في طوايا الناس. ويلذ لها أن تخبرني عن زواري: أيهم من أسرة عريقة، وأيهم الرياضي، وأيهم تلقى تربية حسنة، والمتعب في أمرها أن كل من لا يقع عندها في موقع من هذه المواقع الثلاثة، فهو معرض لأن يقال له أني غير موجود. حتى أن صديقا لي من أمهر وأنبغ الرسامين كتب لي ذات يوم خطابا بالبريد يقول فيه. إنه يريد مني التوسط لديها كي تسمح له بالصعود، لأن المسكين لا يرشحه مظهره المهمل للدخول تحت أي عنوان من العناوين الثلاثة.

وصعدت إلى مسكني، وفتحت البرقية فوجدتها من صديق ينبئني بموعد وصوله، ووضعت الخطابات فوق المائدة ودخلت حجرة النوم، وخلعت ثيابي ودخلت تحت الرشاش. وعندها سمعت جرس الباب، فارتديت "روب" الحمام والخف وذهبت إلى الباب، وإذا بها "بريت" ومن ورائها الكونت، وفي يده باقة كبيرة من الورد، فقالت:

– ألن تدعنا ندخل يا حبيبي؟

– أدخلا، فكنت على وشك الاستحمام. اجلس يا كونت. ماذا تحبان أن تشربا؟

– أنا لا أدري إن كنت تحب الأزهار أم لا، ولكني أتيت لك بهذه الباقة من الورد.

وتناولت "بريت" منه الورد قائلة:

– أعطينها. وآتني بإبريق يا "جاك".

وأتيتها بإبريق به ماء، ونسقت "بريت" الورد، ووضعته على المائدة، ثم قالت:

– كان يومنا حافلا.

– ألا تذكرين شيئاً على الإطلاق عن موعد لك معي للقاء في فندق كريون؟

– لا. لابد أني كنت غائبة عن وعيي عندما أعطيتك ذلك الموعد.

وقال الكونت:

– كنا مخمورين جداً يا عزيزتي.

وانتهزت الفرصة فقلت:

– لقد أصلحت الأمر جداً بينك وبين البوابة.

– طبعا، طبعا. فقد أعطيتها ٢٠٠ فرنك.

– يا لك من حمقاء.

– إنها نقوده يا حبيبي.

وأومأت إلى الكونت، فقال:

– كان لابد أن أعطيها شيئاً بعد ما أزعجتها في الليل. فقد كان الوقت متأخراً جداً.

– إنه رائع، ويتذكر كل ما حدث. والآن يا "جاك" ألا تقدم إلينا شيئاً من الشراب؟

– اشربا كما تشاءان، ريثما أرتدي ثيابي، وأنت تعرفين أين توجد جميع الأدوات.

– طبعا أعرف.

وكنت أرتدي ملابسي ببطء، وأنا جالس على الفراش لفرط إحساسي بالإعياء. ودخلت "بريت" الحجرة وفي يدها كأس، وقبلتني قبلة هادئة على

جبيني، فقلت:

– أوه يا "بريت". كم أحبك.

– هل تحب أن أصرفه؟

– كلا. إنه لطيف للغاية.

– سأصرفه.

– ليس في وسعك أن تفعلي به هذا هكذا.

– ألا أستطيع ذلك حقا؟ ابق أنت هنا. إنه مجنون.

وغادرت الحجرة، فارتميت بوجهي على الفراش، وأنا في شر حال، وسمعتهما يتحدثان. ولكني لم أتبين ماذا يقولان. ثم دخلت "بريت" وجلست على الفراش، وربتت على رأسي، وهي تقول:

– أوه يا حبيبي المسكين.

وكنت مستلقيا ووجهي مشيح عنها.

– أرسلته لشراء الشمبانيا فهو يحب أن يشتريها ولكن ألست الآن أحسن حالا؟

– أحسن.

– ارقد مطمئنا، فقد ذهب إلى الطرف الآخر من المدينة.

– أليس في الإمكان أن نعيش معا؟ أليس هذا ممكناً يا "بريت"؟

– لا أظن هذا لأني في هذه الحالة سوف أخونك مع كل إنسان. ولن تحتمل هذا.

– ها أنذا أحتمله الآن.

– سيكون الوضع مختلفاً عندئذ، والذنب في هذا ذنبي أنا، فهكذا خلقت. ولا حيلة في الأمر لي يا "جاك"!

– أفلا نستطيع الذهاب إلى الريف لقضاء بعض الوقت؟

– كم يكون هذا جميلاً. ولكني أراه لا يجدي، لأني لا أستطيع أن ألزم حياة الريف الهادئة طويلاً، ولاسيما وأنا مع حبيب قلبي.

– أعلم هذا.

– شيء سخيف. أليس كذلك؟ ولا جدوى من أن أكرر على مسامعك أني أحبك ولا شيء وراء ذلك.

– أنت تعرفين تماما كم أحبك.

– فلندع الكلام، فما تحته طائل. وأنا على كل حال راحلة عنك فترة من الوقت، وبعد ذلك سيأتي "مايكل".

– إلى أين أنت راحلة؟

– إلى سان سباستيان.

– متى؟

– بأسرع ما يمكن. فهذا خير لي ولك.

– ألا نستطيع أن نذهب معا؟

– كلا، فسيكون هذا تعذيباً لكلينا، بعد أن تكاشفنا، فلا تكن عنيداً يا حبيبي..

– أنت على صواب.. ولكني في حالة غير طبيعية، ولذا أفكر بطريقة بلهاء.. فلا عليك مما أقول.

ونهضت من رقادي، وجلست على الفراش، ومددت يدي إلى حذائي وارتديته، ثم وقفت، فقالت لي:

– لا تبتئس هكذا يا حبيبي، سأسافر غدا..

– إذن هيا بنا نشرب كأسا، فقد آن للكونت أن يعود..

– نعم آن له أن يعود.. وأنت تعلم أنه ممتاز في انتقاء الشمبانيا..

وذهبنا إلى حجرة المائدة، وتناولت زجاجة البراندي وصببت لـ "بريت" كأسا ولي كأسا آخر.. وسمعنا رنين الجرس، وإذا بالكونت ومن خلفه السائق حاملاً سلة من الشمبانيا، وأخذ الكونت يطري هذا الصنف ويعدد مزاياه، وكيف أن منتجه يزرع العنب بنفسه، وأنه بارون.. فقالت "بريت":

– إذن فكلنا من ذوي الألقاب هنا، إلا أنت يا "جاك"..

فقال الكونت بأدب شديد:

– ثق يا سيدي أن اللقب لا فائدة منه إلا إرهاقك بالتكاليف.

فقالت "بريت":

– لست أدري.. ولكني أخال اللقب ذا فائدة لا تقدر أحياناً.

– أنا لم أجد له شخصياً أدنى فائدة..!

– لأنك لم تستغل لقبك كما ينبغي. أما أنا فقد استطعت أن أجني منه فوائد جمة، لأنه يضفي على الثقة التي احتاج إليها ولولاها في بعض المواقف لأصابني ضرر جسيم.

وفي هذه الأثناء كان السائق قد أعد لنا الشمبانيا، وجاء بها في وعاء الثلج.. ثم أمره الكونت أن ينتظر في السيارة وقال لي ولـ "بريت":

– سوف نحتاج للسيارة كي نذهب إلى الغابة للعشاء.

فقالت "بريت":

– إن كان لك في ذلك رغبة، فأنا شخصياً لا أشعر بحاجة للطعام.

– ولكني لا أستغنى إطلاقاً –ومهما كانت الظروف– عن وجبة طيبة بانتظام، وفي وقتها المعتاد، ألا تدخن يا سيدي هذا السيجار الأمريكي؟ جربه، وستجده جميلا..

واستخدم آلة ذهبية لقطع السيجار الكبير، وراح ينفث الدخان بلذة، ثم قال لـ "ليدي آشلي" من خلال الدخان الكثيف:

– ولكنك عندما تحصلين على الطلاق يا ليدي آشلي سوف لا يكون لك لقب.

– كلا، للأسف الشديد..

– لا داعي للأسف، فأنت لا حاجة بك إلى لقب، لأن السمو باد عليك في كيانك كله، ويشع منك.

– شكرا جزيلا.. هذا كرم عظيم منك، هذا كلام يسر والدتي كثيراً أن تسمعه.. ألا تستطيع أن تكتبه في ورقة كي أرسله إليها؟

– بكل تأكيد، فأنا لا أنافقك.. أنا لا أداهن الناس لأن المداهنة أضمن طريق لكسب عداوة الناس في النهاية.

فضحكت "بريت" وقالت:

– أنت على حق في هذا، فأنا أجامل الناس دائماً.. وليس لي في الدنيا كلها صديق واحد، اللهم إلا "جاك"..

– ذلك رغم أنك لا تجامليه..؟

– هذا صحيح.. والآن لماذا لا تصب لنا الشمبانيا؟

– إنها لم تبرد بعد بما فيه الكفاية، ولماذا تتعجلين الشراب؟ أنك تفرطين فيه كثيرا، فلنتكلم..

– أنا لا أحب الكلام، أريد أن أشرب..

– لماذا تكرهين الكلام؟ أنك في كلامك معي لا تتمين الجملة التي تبدئينها..

– لأني أتركها لك كي تتمها على هواك.. كل يتمها على هواه..

– هذا أسلوب مبتكر في الحديث، ومع هذا أحب أن أسمعك أحياناً تتكلمين مثل سائر الناس..

وحين لمس الزجاجات أبرقت أساريره..

وملأنا الكؤوس، وكانت شمبانيا رائعة حقاً، واقترحت "بريت" أن نشربها في نخب من نحب، ولكن الكونت اعترض قائلاً:

– هذه الخمر يا عزيزتي أجود من أن يخلطها المرء بأي شيء، حتى ولو بعواطفه، حتى لا يضيع جمال طعمها الصرف.

وأفرغت "بريت" كأسها قبل أن تفطن إلى ذلك، وقلت للكونت:

– ينبغي يا كونت أن تكتب كتابا عن الخمر..

– إن كل ما أريده من الخمر الجيدة يا مستر "بارنز" هو أن أستمتع باحتسائها استمتاعاً خالصاً من أية فكرة مجردة تخالطه فتفسده.

فقالت "بريت":

– إذن هيا بنا نستمتع بمزيد من هذه الخمر..

وقدمت كأسها، فصب الكونت، بحذر، جرعة فيها وهو يقول:

– استمتعي يا عزيزتي بهذا ببطء.. وستشعرين بعدها بالسكر اللذيذ..

السكر؟..

– أجل.. فأنت يا عزيزتي عندما تسكرين تكونين في غاية الظرف..

ثم اتجه إلى مستر "بارنز" واستأنف حديثه قائلا:

– صدقني يا مستر "بارنز" أنها السيدة الوحيدة تقريباً التي رأيتها ظريفة في حالتي صحوها وسكرها على السواء..

فضحكت "بريت" وقالت:

– لابد وأن تجاربك محدودة يا كونت..

– كلا.. لقد خبرت الدنيا كثيراً، وعركتها، واشتركت في سبع حروب وأربع ثورات..

فسألته "بريت":

– محارباً؟

– أحياناً.. وأصبت بجراح من السهام، هل رأيتما من قبل جراح السهام؟

– أوه.. أرنا إياها..

فوقف الكونت، وخلع سترته، وفك أزرار قميصه، وعرى ظهره الأسمر وصدره ومعدته البارزة العضلات، وقال:

– أرأيتما..؟

وتحت الضلوع، رأينا ندوبا بارزة سميكة، ثم استدار فرأينا الآثار بارزة من الظهر أيضاً، من حيث نفذت السهام، وبينما الكونت يرتدي ثيابه سألته:

– وكيف أصبت بهذه الجروح؟

– في الحبشة، عندما كنت في الحادية والعشرين من عمري..

وسألته "بريت":

– وماذا كنت تصنع هناك؟ هل كنت جنديا؟

– لا.. كنت في رحلة تجارية.

– ألم أقل لك يا حبيبي إنه من طرازنا؟ أنت رائع يا كونت وأنا أحبك..

– إنك تسعدينني كثيراً جداً بهذا القول يا عزيزتي، ولكن هذا بالتأكيد غير صحيح..

– لا تكن غبيا..

ومضى الحديث على هذا النحو، وشربنا ثلاث زجاجات من الشمبانيا، وترك الكونت بقية السلة في مطبخي، وذهبنا إلى الغابة لنتعشى.. وكان عشاء فاخراً، والسهرة ممتعة، وكان الكونت في قمة السعادة، فقال لنا:

– أنتما من أظرف الناس.. لماذا لا تعقدان زواجكما؟

فقلت له:

– لأن كلا منا يريد أن يحيا حياته على هواه.

وقالت "بريت":

– كل منا له اتجاه خاص في حياته.

وتوجهنا بعد ذلك إلى مونمارتر، وراقصت "بريت" وقالت:

– إنك راقص سيء يا حبيبي.. أما "مايك" فأبرع راقص عرفته في حياتي.

– أعرف أنه هائل..

– لا تكن أحمق.. إنه الرجل الذي سأتزوجه، والعجيب أني لم أفكر فيه طوال هذا الأسبوع.

وكفت الموسيقى عن العزف، وعدنا إلى المائدة، واستقبلنا الكونت بالإطراء، وسألته:

– ألا ترقص يا كونت؟

– كلا.. فأنا رجل عجوز.

فجذبته "بريت" قائلة":

– لا تقل هذا.. قم وراقصني..

– يا عزيزتي إني ما كنت لأتردد في الرقص لو أني كنت أعلم أني سأستمتع به.. ولكني أستمتع كثيراً بمشاهدتكما ترقصان.

ورقصنا مرة أخرى، ثم أعربت "بريت" عن رغبتها في الانصراف، فقال لنا الكونت:

– خذا السيارة، وسأبقى أنا هنا قليلاً.

وقبلت "بريت" الكونت وهي تضع يدها على كتفه كي تمنعه من النهوض، وبعد أن وصلنا إلى الباب التفت ورائي فإذا بثلاث فتيات قد جلسن إلى مائدته.. وركبنا السيارة الكبيرة، وأعطت "بريت" السائق عنوان فندقها، ولما وصلنا قالت:

– كلا يا "جاك".. لا تصعد، أرجوك..

– طابت ليلتك، ويؤسفني أن تشعري بالكآبة..

الفصل التاسع

لم أر "بريت" بعد ذلك إلى أن عادت من سان سباستيان. ولم أتلق منها سوى بطاقة بريد واحدة، كان نصها:

حبيبي: أنا بخير وسلام وصحة جيدة، بلغ حبي لجميع الرفاق.. "بريت"

وكذلك لم أر "روبرت كون"، وكنت قد سمعت أن صاحبته "فرانسيس" قد سافرت إلى انجلترا، وتلقيت من "كون" كلمة يبلغني فيها أنه قرر السفر إلى الريف لقضاء أسبوعين، ولكنه لا يدري بالضبط أين سيكون، بيد أنه في الوقت نفسه يريد أن يقيدني برحلة صيد السمك في أسبانيا. تلك الرحلة التي كنا قد تحدثنا فيها في الشتاء الماضي.

وهكذا رحلت "بريت" واسترحت أيضاً من متاعب "كون" الخاصة، وسرني أني لم أعد مرتبطا بلعب التنس معه، فتفرغت لعملي وترددت كثيراً على ميادين السباق، وسهرت مع الأصدقاء وقضيت أوقاتا إضافية في العمل لانجاز قدر كبير منه حتى أتمكن من القيام برحلتي إلى أسبانيا في أواخر يونيه.

ووصل صديقي "بيل جوردون"، وكان في أوج السعادة لأنه جنى أموالاً طائلة من كتابه الأخير، وفي مرجوه أن يجني المزيد.. فصار ينفق عن سعة في باريس، كما انفق عن سعة واستمتع كل الاستمتاع في فيينا من قبل، ولم يلبث أن فارقني مرة أخرى إلى فيينا على وعد أن يعود بعد أسبوعين، كي نسافر معاً إلى أسبانيا لصيد السمك، ثم نذهب إلى "بمبلونا" لحضور المهرجان السنوي.. ومن فيينا كتب إلي يقول: أن فيينا رائعة، ثم كتب إلي أيضاً من بودابست يقول: أن بودابست رائعة كذلك.. وأخيراً جاءتني منه برقية يقول فيها أنه سيحضر يوم الاثنين..

ويوم الاثنين مساء وصل إلى مسكني، وراح يطري بحماس محاسن بودابست، وكيف أنها أروع من فيينا، وهو خلاف المفروض.. واتضح من ثنايا الكلام أنه كان مخموراً طوال مدة إقامته في فيينا فلم يذكر منها هذه المرة شيئاً.ونزلنا لنتناول العشاء، وكان في حالة سكر لا مزيد عليها، وجعل يترنح، مصراً على عدم الركوب، وأمام متجر للطيور والحيوانات المحنطة، وقف وأصر على أن يشتري لي كلباً محنطاً أزين بي بيتي.. فعارضته بطبيعة الحال، ولكنه ألح قائلاً:

– سأشتري لك كلباً واحداً فقط، وأؤكد لك أنك سوف تحبه جداً بعد أن تشتريه.. أنه مجرد استبدال بسيط للقيم، أنت تعطيهم نقودا وهم يعطوك كلباً محنطا..

– دع هذا الآن.. وسنشتري واحداً عند عودتنا.

– أنت وما تريد إذن.. هيا بنا نشر كأسا..

– ولكنك لست بحاجة في الوقت الحاضر إلى مزيد من الخمر، فما في جوفك منه فيه الكفاية لفترة طويلة.

– أنا سعيد لأنني مررت في طريقي إلى بيتك ببار فندق كريون، فعندهم هناك بارمان بارع، اسمه جورج.. يحيا جورج.. يحيا جورج..!

– وماذا سنصنع الليلة؟

– أي شيء.. سيان عندي.. ألا يوجد عندهم هنا بيض مسلوق، جامد؟.. سيكون هذا أفضل لنا بكثير من قطع كل تلك المسافة كي نأكل..

وكنا قد جلسنا في مقهى، فقلت له:

– اسمع يا "بيل".. أننا سنتناول في الجزيرة عشاء كما ينبغي.

– لا تغضب، فإنما هو اقتراح.. أتحب أن نذهب الآن؟

وعدنا إلى السير في البولفار، فمرت بنا عربة يجرها حصان، فنظر "بيل" ، وقال:

– أترى هذا الحصان؟ سآمر بتحنيطه لك بمناسبة عيد الميلاد، لأني سوف أهدي جميع أصدقائي حيوانات محنطة، فأنا كاتب من أتباع المذهب الطبيعي..

وفي هذه اللحظة مرت بنا سيارة أجرة، وبداخلها شخص لوح لنا بيده.. ثم وقفت السيارة، فإذا بداخلها "بريت"..

وقال "بيل":

– ها هي ذي سيدة حسناء ستختطفنا..

وقمت بتقديم كلا منهما للآخر، ثم قالت لي:

– لقد عدت توا، ولم أتمكن حتى من الاستحمام، وسيعود "مايك" الليلة"..

– عظيم.. تعالى تناولي الطعام معنا.. وبعد ذلك نذهب معك فنستقبله.

– يجب أن أنظف نفسي أولاً..

– هراء.. هيا.. هيا..

– بل يجب أن استحم، فهو لن يصل قبل التاسعة..

– إذن تعالي أشربي شيئاً أولاً..

– هذا كلام معقول..

وركبنا السيارة، والتفت السائق متسائلاً فطلبت إليه أن يقف أمام أول مقصف، ولكن "بريت" عارضت قائلة: إنها لا تحب المشروبات الرخيصة التي تقدمها تلك الأماكن، واقترحت أن نذهب إلى حانة فاخرة اسمها "كلوزيري". فكان لها ما أرادت.

ومن الحديث أثناء الطريق، أدركت "بريت" أن "بيل" مخمور.. ولما وصلنا

إلى الحانة جلسنا في الشرفة، وطلبت "بريت" ويسكي بالصودا.. وطلبت أنا مثل ذلك، أما "بيل" فطلب كأسا من شراب البرنو الشديد الوطأة، وقالت "بريت":

– كيف حالك يا "جاك"؟

– أحسن ما يكون.. قضيت وقتا طيبا..

ورفعت "بريت" إلى بصرها، وقالت:

– كانت حماقة مني أن أذهب.. غبي هو الإنسان الذي يترك هذه المدينة الفريدة..

– وهل قضيت وقتا طيبا؟

– أوه.. لا بأس.. ليس كأروع ما يكون..

– هل رأيت أحداً من المعارف هناك؟

– كلا.. لأني لم أخرج..

– ألم تستحمي؟

– كلا.. لم أصنع شيئاً إطلاقاً.. والآن سأشرب كأساً أخرى وأنطلق، أطلب من الساقي أن يرسل في طلب سيارة أجرة.

– هناك صف طويل منها أمام الباب مباشرة..

وشربنا ما في أقداحنا، ثم وضعنا "بريت" داخل السيارة.

وقالت لي والسيارة تهم بالانطلاق:

– تذكر أن تكون في السليكت حوالي الساعة العاشرة، واحضر معك صاحبك.. فهو ظريف، وسيكون "مايك" هناك.

وأجابها "بيل" قائلاً:

– سنكون هناك..

وما إن ابتعدت، وهي تلوح لنا، حتى قال "بيل":

– يا لها من فتاة.. ما ألطفها.. ومن هو "مايك"؟

– الرجل الذي ستتزوجه..

– هكذا دائماً كلما راقت لي فتاة!.. وماذا تقترح أن أهديهما بمناسبة العرس؟.. زوج من الأحصنة المحنطة؟ من أحسن نوع، أحصنة سباق أصيلة؟

– أولى بنا من التفكير في هذا أن نأكل..

وتناولنا الطعام في مطعم مدام ليكومنت بأقصى الجزيرة.. وكان غاصاً بالأمريكان حتى أننا اضطررنا للوقوف انتظارا لخلو مائدة، ودام انتظارنا ثلاثة أربا ع الساعة..

وعوضتنا جودة الطعام عن هذا الانتظار الطويل، وبعد أن شربنا القهوة انصرفنا عائدين على الأقدام كي نستمتع بليل باريس الجميل، مارين بالكباري البديعة والمنازة الهادئة، واتجهنا ببطء إلى مقهى السليكت..وما أن وصلنا إلى هناك حتى خرج "مايك" لاستقبالنا من بين الموائد، ورحب بي ترحيبا حارا، ودخل "بيل" إلى البار.. وهناك كانت "بريت" جالسة تلوح لنا بيدها وهي تدخن سيجارة وذهبنا إليها، وقامت هي بالتعريف بين "مايك" و"بيل"، وكان "مايك" مخموراً، فراح يوجه كلمات الغزل إلى "بريت" وأردف قائلاً:

– لا حيلة لي.. يجب يا "بريت" أن نعود إلى الفندق مبكرين.

فتصنعت الغضب، وقالت له:

– ما هذا الذي تقول؟.. ألا تراعي أن في المكان سيدات؟

– إنك قطعة بديعة.. ألست ترى هذا يا "جاك"؟

وصاح "بيل":

– تقام الليلة حفلة مصارعة.. فهل تحبون أن نذهب؟

وجذبت "بريت" قبعتها فوق جبينها وغمزت بعينيها وقالت:

– اذهبا أنتما إلى المصارعة.. أما أنا فسوف أذهب سريعا ب"مايك" إلى مأواه..

– ولكني لست سكرانا، آه يا "بريت".. كم أنت جميلة.

– ما كل هذه الانفجارات العاطفية؟ اذهبا أنتما من فضلكما إلى المصارعة.. فهذا السيد "مايك" حالته مثيرة للقلق..

– أنت جميلة يا "بريت" جداً، وأقول لك جدا.. جدا..

وكانت "بريت" تضحك من حالة إعلان الحب المفاجئة هذه، فقلت لـ "بيل":

– ألا ترى أن "مايك" كان شديد اللهفة على صديقته؟

– لا يمكن أن ألومه على ذلك.. أنها رائعة، وهو معذور..

الفصل العاشر

وكانت المصارعة التي تمت بين "ليدو" وخصمه مساء يوم ٢٠ يونية جيدة، وفي الصباح التالي، تلقيت من "كون" خطابا مرسلا من هنداي يبلغني أنه يستمتع بالراحة والهدوء، ويستحم ويلعب الجولف أحياناً ويلعب البريدج في معظم الأوقات، ومع ذلك فهو متلهف على رحلة الصيد، ويسألني متى الرحيل؟

وفي ذلك الصباح نفسه أبرقت إليه من المكتب أنني سأغادر باريس مع "بيل" في ٢٥ من هذا الشهر إلا إذا أبرقت إليه بما يخالف ذلك، وأن لقاءنا سيكون في بايون حيث نستقل "أوتوبيسا" يعبر بنا الجبال إلى بامبلونا.

وفي ذلك المساء، في نحو الساعة السابعة مررت بمقهى سليكت لاري "بريت" و"مايك" فلم أجدهما هناك فذهبت إلى مقهى دينجو. وهناك وجدتهما جالسين في البار، ومدت "بريت" يدها إلى مرحبة بي، وهي تناديني كالعادة: "يا حبيبي"، وكذلك "مايك" رحب بي، ثم سألني:

– متى تنوي الذهاب إلى إسبانيا؟ وهل يضايقك أن نذهب نحن أيضاً معك؟

– بل سيكون هذا مصدر سرور بالغ..

– لقد زرت بامبلونا من قبل كما تعلم، ولكن "بريت" تموت شوقا إلى الذهاب..

_ في نيتي أنا و"بيل" أن نرحل في صباح ٢٥ القادم.

وسألتني "بريت":

– وبهذه المناسبة، أين "بيل"؟

– ذهب إلى ضاحية شانتيي مع بعض الصحاب للعشاء.

– إنه شخص ظريف للغاية.

– هو بلا شك ظريف جدا. سنذهب نحن إذن في مساء يوم ٢٤، لأن "بريت" لا تستطيع القيام في ساعة مبكرة من الصباح. هذا إذا وصلتنا النقود في الوقت المناسب، وكان ذهابنا لا يضايقك، سيكون السفر بديعاً جدا. ولكن يوم ٢٥ يوافق أي يوم من أيام الأسبوع؟

– إنه يوم السبت القادم.

– يجب إذن أن نستعد منذ اليوم. وأبدأ الآن بالذهاب إلى الحلاق.

فقالت "بريت":

– أما أنا فلابد لي أن استحم. سر معي إلى الفندق يا "جاك".

وانصرف "مايك" إلى الحلاق، وبقيت مع "بريت" في البار إلى أن شربت كأساً أخرى، ثم سرنا في شارع ديلامو، وقالت "بريت":

– لم أرك منذ عودتي. كيف حالك يا "جاك"؟

– على ما يرام.

فنظرت "بريت إلى مليا، وقالت:

– اسمع. هل "كون" ذاهب أيضاً إلى أسبانيا معنا؟

– نعم. ولماذا تسألين؟

– ألا تظن أن هذه الرحلة ستكون شديدة الوطأة على أعصابه؟

ومشينا صامتين بعض الوقت، ثم قالت:

– كان سأمانا، واعتقدت أن سفري معه قد يفيده.

– الأولى بك أن تحترفي الخدمة الاجتماعية!

– لا تكن سخيفاً. ألم تكن تعرف هذا الخبر حقاً؟

– كلا. ولم يخطر هذا ببالي.

– ألا تعتقد إذن أن هذه الرحلة ستكون قاسية عليه؟

– هذا أمر يتوقف عليه هو، أخبريه أنك ذاهبة، وسيكون بيده ألا يذهب.

– سأكتب إليه إذن، وأمنحه فرصة الانسحاب في الوقت المناسب.

ولم أر "بريت" بعدها إلا ليلة ٢٤ من الشهر، فسألتني:

– هل عندك أخبار من "كون"؟

– عندي. إنه حريص جداً على الذهاب.

_ لعلك تركته يعتقد أنك ذاهبة وحدك؟

– كلا.. بل أفهمته بوضوح أنني ذاهبة مع "مايك".

وتم الاتفاق على أن نلتقي في بامبالونا، لأنهما سيذهبان إلى سان سباستيان، ومنها يركبان القطار مباشرة إلى بامبالونا. فإذا لم يحضرا إلى هناك يوم الاثنين على الأكثر، كنا أحراراً في أن نذهب وحدنا إلى "بيرجيت" للصيد. وركبت أنا و"بيل" القطار إلى الحدود الإسبانية، ولم يكن اليوم شديد الحرارة، والمناظر كانت رائعة.

ولم نستطع أن نتناول الطعام في عربة الأكل إلا في الدفعة الخامسة، بسبب شدة الزحام، واحتكار مجموعات الحجاج الكاثوليك للموائد، ولذا كان الخدم في العربة مرهقين جدا، ولاحظنا أن الساقي الذي يقوم بخدمتنا يتصبب

عرقا، وأن سترته البيضاء اصطنعت تحت إبطه باللون الأحمر، فقال "بيل":

– لابد أنه يكثر من شرب النبيذ.

– أو لعله يرتدي ثيابا داخلية حمراء.

وفي نهاية الخط عند الحدود، وجدنا "كون" في انتظارنا، فأخذنا إلى الفندق الذي ينزل فيه، وهو فندق صغير جميل حصل فيه كل منا على حجرة طيبة مستقلة. وكان الجو صحوا في الصباح، وتناولنا جميعاً الإفطار في أحد المقاهي. وبايون بلدة لطيفة تقع على شاطئ نهر كبير، ومع أن الوقت كان مبكراً جداً فقد وجدت الجو حاراً فوق القنطرة عبر النهر، ونحن نتمشى مجتازين البلدة من أقصاها إلى أقصاها.

ولم أكن واثقاً أن "مايك" سيتمكن من استحضار شص له من اسكوتلندة كما قال، ولذا بحثنا عن محل لبيع أدوات صيد السمك، واشترينا شصا جيداً بثمن بخس لـ "بيل" وآخر احتياطيا لـ "مايك" واشترينا أيضاً شبكتين. وعدنا للسير في الشوارع، ووقفنا مليا أمام الكاتدرائية، وقال "كون" شيئاً لم أعره التفاتا عن طراز بنائها. فكل ما كان يعنيني من أمرها أنها جميلة ومعتمة من الداخل مثل سائر الكنائس الإسبانية، ثم توجهنا لزيارة القلعة القديمة، ومن هناك ذهبنا إلى الموضع الذي كان مفروضاً أن نستقل منه سيارة الأوتوبيس لاجتياز الحدود، بيد أنهم أخبرونا أن ذلك الخط لا يبدأ السير إلا في أول يوليو، فاستفسرنا عن أجر سيارة خاصة توصلنا إلى بامبلونا فقيل لنا أنها ٤٠٠ فرنك، وأرشدونا إلى جراج اتفقنا معه على أن تأتي السيارة لتحملنا من الفندق بعد ٤٠ دقيقة، وعدنا إلى المقهى الذي أفطرنا فيه وشربنا بيرة مثلجة، وكانت الأنسام المحملة برائحة البحر تهب من بعيد.. وأمامنا –تحت وهج الشمس كانت الحمائم البيضاء تملأ رحبة الميدان. فأحببت ذلك المقهى، ولم تكن لي

رغبة في مغادرته، ولكن لم يكن هناك بد من التوجه إلى الفندق كي نعد حقائبنا فدفعنا ثمن البيرة وانصرفنا، وبعد أن فرغنا من أمر الحقائب جلسنا ننتظر السيارة وزميلنا "كون".

وأخيراً حضر "كون"، وركبنا السيارة الكبيرة التي كان يقودها سائق ذو كسوة بيضاء، وانطلقت بنا إلى الريف اليانع مخترقة حدائق غناء، والطريق طوال الوقت في صعود مستمر. واجتزنا الحدود الإسبانية، ولم يكن التفتيش دقيقاً إذ لم يتجاوز النظر في الحقائب نظرا سطحيا والاطلاع على جوازات السفر. اطلع عليها رجال الحدود الفرنسيون السمان ذوو الشوارب، ثم رجال الحدود النحاف من الأسبان، وكان على السائق أن يملأ استمارة رسمية في مركز الحدود الإسباني، فانتهزنا الفرصة وجلسنا في استراحة صغيرة. وشربنا البيرة إلى أن فرغ السائق من مهمته، واستمرت الطريق على حالها في الجانب الفرنسي، يطرد صعودها من غير أن تتغير المناظر، حتى اجتزنا منعطفا وإذا بنا أمام مناظر إسبانية بمعنى الكلمة. فالجبال عالية بنية اللون، تتخللها غابات تغطي سفوحها ومراع مترامية يانعة وجداول متعرجة تنساب على السفوح وفي السهول. وكان موضعي إلى جوار السائق يسمح لي برؤية جيدة، ولكني احتجت إلى الالتفات ورائي لأعيد النظر إلى أحد المناظر وإذا بي أجد "كون" نائما. أما "بيل" فكان ينظر ويهز رأسه.

وبعد مسافة غير قصيرة، تركنا الجبال وراءنا ودخلنا سهلا منبسطا، وعن يمينه نهر واسع يلمع في الشمس بين صفين من الأشجار العالية. وعلى مدى النظر عن بعد ترى الهضبة التي تقصدها، هضبة بمبالونا مشرفة على السهل كله، تحيط بالبيوت فيها أسوار عتيقة، وتتناثر في ربوعها الكنائس وتبرز من وسطها الكاتدرائية. وأخيراً وصلنا إلى المدينة عن طريق حيها الجديد الذي

يشيدونه في الجانب الآخر خارج الأسوار العتيقة، ومررنا في طريقنا بساحة الثيران، ثم وجدنا أنفسنا في الميدان الكبير حيث وقفت بنا السيارة أمام فندق مونتويا..وساعدنا السائق في إنزال الحقائب، وتجمع رهط من الغلمان يرقبون ما نصنع وأحاطوا بالسيارة، وكان الميدان شديد الحرارة والأشجار التي تنتشر فيه شديدة الخضرة، فطاب لنا أن ننزل لننعم بالظل تحت البواكي التي تحيط بالميدان من جميع الجهات.

ورحب بنا مونتويا، وصافحنا باشتياق، وأعطانا غرفا تطل على الميدان، واغتسلنا ثم نزلنا إلى قاعدة المائدة لتناول الغداء، وبقى السائق أيضاً لتناول الغداء بدعوة منا ثم نقدناه أجره وعاد إلى بايون.. وللفندق قاعتان للطعام، إحداهما في الطابق الثاني وتطل على الميدان، والأخرى في الطابق الأرضي تحت مستوى الميدان، وبها باب يفضي إلى شارع ضيق تنطلق فيه الثيران عندما تخرج في الصباح الباكر في طريقها إلى الملعب، والرطوبة في القاعة السفلى مستحبة دائماً، وفيها حظينا بغداء شهي، وكان لابد أن نشرب كمية هائلة من النبيذ كي نتمكن من بلع كل تلك الأصناف، وكان أشقانا بكثرة الطعام هو "كون" لأننا رفضنا أن نترجم عنه للخادم أنه اكتفى بما أكل.

وقد لاحظت أن "كون" متوتر الأعصاب منذ قابلنا في بايون ولعل السبب في هذا أنه لا يدري هل نعلم أن "بريت" كانت معه في سان سباستيان أم لا.. فقلت له:

– المفروض أن تصل "بريت" و"مايك" الليلة.

– لست واثقاً تماماً أنهما سيأتيان.

وتدخل "بيل" في الحديث، وانتهز الفرصة فراهن "كون" على أنهما

سيحضران، ثم ذهب "كون" ليحلق ذقنه، وتوجهت أنا و"بيل" إلى مقهى أيرونا لتناول القهوة، ولم يلبث أن لحق "كون" بنا قائلاً:

– الحلاق لا يفتح دكانه قبل الساعة الرابعة.

وبعد أن شربنا القهوة، نهض "بيل" ليكتب بعض الرسائل وتوجه "كون" إلى دكان الحلاق، ولكنه وجده لم يزل مغلقاً، فقرر أن يصعد إلى الفندق ويستحم، وقمت أنا لأتجول في البلدة. وقد أسعدني أن أمر بالسوق وبالشوارع العتيقة مرة أخرى، وزرت السيد الذي يتولى كل سنة أمر مراهناتي. وكنت قد أرسلت إليه من باريس مبلغاً لهذا الغرض، فسلمني بطاقات المراهنة، وخرجت من عنده فطالعتني الكاتدرائية ببنيانها المهيب فقررت أن أتجه إليها ودخلتها فإذا الظلام يسود أرجاءها تشقه أعمدة عالية، وعلى الأرض مصلون راكعون، وفي الجو رائحة بخور قوية تملأ الخياشيم، وأما النوافذ، فكانت بديعة بنقوشها الملونة.

وركعت ورحت أصلي، فصليت أولاً لنفسي، ثم لجميع من أعرفهم، ووردوا على خاطري: "بريت" و"مايك" و"بيل" و"كون" وسائر مصارعي الثيران. من أحبهم وأراهن عليهم واحدا واحدا، ثم للباقين جملة. وصليت لنفسي مرة أخرى، وكان النعاس قد أخذ يداعبني، فشرعت أصلي كي تكون المصارعة هذا العام ناجحة، وأن نظفر بمتعة وبهجة في المهرجان، ونحصل على سمك كثير في صيدنا. وتساءلت هل هناك شيء آخر يستحق أن أذكره في صلاتي، وخطر لي أنه لا بأس من طلب شيء من النقود، وذكرتني مسألة المال بالكونت، فدعوت له أيضاً، وتنبهت إلى أنني راكع كسائر الناس لأنني كاثوليكي بالوراثة، مع أنني لا أحس بأي عاطفة دينية حقيقية. ولكنني قلت: لا بأس، وعسى أن يأتي التمرين بثمرة مع الوقت، فأكون في المرة القادمة متديناً حقيقياً.

وخرجت مرة أخرى إلى الشمس الحارة القاسية فوق سلم الكاتدرائية،

وعبرت الميدان إلى ظل بعض الأبنية، ثم عدت عن طريق الشوارع الجانبية إلى الفندق.

وفي وقت العشاء، تبين أن "روبرت كون" استحم وحلق ذقنه وقص شعره وضمخه بمثبت عطري للشعر حتى لا يعبث به الهواء. وكان المفروض أن يصل القطار من سان سباستيان في الساعة التاسعة، فإن كانت "بريت" قادمة حقاً هي و"مايك" فلا بد أن يأتيا بهذا القطار، ولاحظنا أن "كون" شديد العصبية، ولما صارت الساعة التاسعة إلا عشرين دقيقة، لم نكن قد فرغنا بعد من نصف الوجبة. بيد أن "كون" نهض قائلاً إنه ذاهب إلى المحطة فوراً، فقلت له كي أغيظه: أني ذاهب معه، أما "بيل" فقال:

– لتحل علي اللعنة أن أنا تركت طعامي لأذهب معكما.

فقلت له أنه لا لزوم إطلاقاً لهذا لأننا سنعود في الحال. ومضينا إلى المحطة وأنا مستمتع بتوتر أعصاب "كون"، وتمنيت أن نجد "بريت" في ذلك القطار. ولما وصلنا للمحطة وجدنا القطار متأخراً عن موعده، فجلسنا ننتظره في الظلام، ولم أكن رأيت في حياتي المدنية كلها بعد تسريحي من الجيش إنساناً في مثل توتر أعصاب "كون" في تلك الليلة، وكان هذا مبعث سرور كبير لي. ولست أنكر أن هذا التشفي فيه إسفاف، بيد أن "كون" كان يتمتع بخاصية تثير أحط ما في الإنسان من غرائز!

وبعد برهة سمعنا من بعيد صفير القطار وهو قادم، ونهضنا إلى الطوار ووقفنا بين زحام الناس قرب البوابة التي سيخرج منها جميع الركاب، ولم نجدهما بين الخارجين، ومع هذا انتظرنا إلى أن خلت المحطة تماما، ثم شرعنا في العودة إلى الفندق. وهناك وجدنا "بيل" يأكل الفاكهة ويشرب زجاجة من النبيذ فقال:

– ألم يأتيا؟

- كلا.

- هل لديك مانع يا "كون" أن أؤدي إليك قيمة الرهان غدا، لأني لم استبدل بنقودي عملة إسبانية بعد؟

- لا عليك. فلنتراهن على شيء آخر.

وفي هذه اللحظة جاء "مونتويا" وسلمني برقية وصلت باسمي، وكان نصها:

- سنقضي الليلة في سان سباستيان..

وطويت البرقية، ووضعتها في جيبي، وأنا أقول:

- أنها منهما، وسيبقيان الليلة في سان سباستيان..

وتعمدت ألا أريهما البرقية كما جرت العادة كي أغيظ "كون" ثم قلت:

- اقترح أن نركب "أوتوبيسا" ظهر الغد إلى "بيرجيت"، وفي وسعهما أن يلحقا بنا إذا وصلا غدا مساء.

ولم تكن هناك قطارات تصل من سان سباستيان كل يوم سوى قطار واحد في المساء، وآخر في الصباح الباكر.

وقال "كون":

- يبدو لي أن هذا الرأي وجيه.

وقال "بيل":

- كلما بكرنا بالسفر كان أفضل.

وجلسنا في مقهى أيرونا، وشربنا القهوة، ثم مشينا قليلاً إلى ملعب المصارعة، وفي الميدان، وتحت الأشجار، وعلى شاطئ النهر في الظلام. وعدت إلى الفندق مبكراً، وبقي "كون" و"بيل" في المقهى إلى وقت متأخر جداً فيما

أعتقد لأني كنت نائماً عندما عادا. وفي الصباح اشتريت ثلاث تذاكر لأوتوبيس بريجيت المقرر قيامه في الساعة الثانية، لأني لم أجد أوتوبيسا قبله. ورجعت إلى مقهى أيرونا أطالع الصحف، وإذا بي أرى "كون" قادما عبر الميدان، ثم جلس أمامي وقال لي:

– هذا مقهى لطيف. هل قضيت ليلة طيبة؟

– نمت كالحصان.

– لم أنم نوما حسنا. وسهرنا كثيراً أنا و"بيل".

– أين كنتما؟

– هنا. ولما أغلق هذا المقهى أبوابه ذهبنا إلى ذلك المقهى الآخر الذي يتكلم صاحبه الانجليزية والألمانية.

– مقهى سويسرا؟

– بالضبط. وأعتقد أنه أفضل من هذا.

– ولكنه ليس مناسباً في النهار بسبب شدة الحر فيه. وبهذه المناسبة اشتريت التذاكر.

– لست أنوي السفر اليوم. سافر أنت و"بيل".

– ولكني اشتريت تذكرة لك..

– أعطنيها وسأسترد ثمنها..

– ثمنها خمس بيزيتات..

وأعطاني "كون" المبلغ قائلاً:

– يجب أن أبقى..

– سنسافر أنا و"بيل" بعد الغداء مباشرة..

– كنت أتمنى أن أذهب معكما أنا أيضاً لأني كما تعلم كنت أتطلع بكل شوق إلى هذه الرحلة لصيد السمك، ولكني بمجرد وصولهما سآتي بهما إلى هناك..

– هيا بنا نبحث عن "بيل"..

– سأذهب إلى الحلاق..

– أراك إذن وقت الغداء..

ووجدت "بيل" في حجرته يحلق ذقنه، ولما أخبرته بما كان من أمر "كون" فرح لبقائه. وقال:

– إنه إنسان ثقيل الظل جدا.. فليذهب إلى الجحيم.. هيا بنا نستعد لرحلة الصيد بسكرة ممتازة من النبيذ..

– هيا إذن إلى المقهى.

الفصل الحادي عشر

كان الجو حاراً جداً في الميدان، عندما خرجنا بعد الغداء ومعنا حقائبنا وأدوات الصيد كي نذهب إلى بيرجيت.. ورأينا الناس متكدسين فوق سطح الأوتوبيس، وبعضهم يصعدون على سلالم من الخشب لينضموا إليهم، وصعد "بيل" وجلس "كون" إلى جواره ليحفظ لي مكانا، ريثما عدت أنا إلى الفندق لآتي بزجاجتين من النبيذ كي نأخذهما معنا، ولما رجعت لم يكن في السيارة موضع لقدم.. والشمس تصب أشعتها المحرقة عليهم، والنساء قد أخرجن مراوحهن الأسبانية الملونة لجلب الهواء، وتخلى لي "كون" عن المكان الذي حجزه لي فوق مقعد كبير من الخشب بعرض سقف الأوتوبيس المصنوع من الصفيح..

ووقف "كون" في ظل البواكي يرقب رحيلنا.. وكان جالسا على السقف أمامنا فلاح، وفي حجرة زق من الجلد به خمر، وقد أسند ظهره إلى أرجلنا، وعرض زقه على "بيل" وعلي.. فلما رفعت الزق إلى فمي لأشرب قلد صوت "كلاكسون" السيارة تقليداً محكما، وعلى حين غرة، فأرقت بعضا من الخمر وضحك مني الجميع.. واعتذر لي الرجل ورجاني أن أشرب جرعة أخرى ثم أتى بنفس الخدعة.. ومرة أخرى انطلت علي، والحقيقة أنه كان بارعاً جداً في هذا التقليد.

وكان الرجل الجالس بجوار "بيل" يتحدث إليه بالأسبانية و"بيل" لا يفهم مراده، فغطى موقفه بأن قدم إليه إحدى زجاجتي النبيذ، بيد أن الرجل رفضها قائلا:

– إن الجو حار جدا، وقد شربت كثيراً أثناء تناول وجبة الغداء..

ولكن عندما أعاد عليه "بيل" الكرة، أخذ الزجاجة وشرب منها جرعة كبيرة، ثم قامت الزجاجة من تلقاء نفسها بدورة كبيرة طافت فيها بأفواه جميع الركاب في هذا الجانب من السيارة، ولكن كل شارب كان يكتفي بجرعة رمزية على سبيل المجاملة، وكلهم فلاحون من سكان التلال عائدون إلى قراهم..

وأخيراً، بعد طول انتظار، بدأ الأوتوبيس رحلته.. ولوح لنا "كون" بيده مودعا، ورد جميع الفلاحين الركاب على تلويحه بمثله.. وبمجرد أن غادر الأوتوبيس المدينة إلى الخلاء تحسن الجو، ولاسيما أننا كنا جالسين تحت الأشجار مباشرة..

والمناظر في هذا الإقليم متغيرة، فمن بعيد تبدو الجبال العالية مكسوة بأشجار الفلين، وفي السهول المراعي وحقول القمح، ولم تلبث السيارة أن ارتفعت بنا فوق الهضبة ارتفاعاً مطردا، وقال لي "بيل":

– إن البرد هنا شديد..

– طبعاً.. فنحن على ارتفاع لا يقل عن ١٢٠٠ متر.

– أوه.. ولكنه برد فظيع..

واستقامت السيارة في الطريق المفضي إلى بيرجيت، ثم اجتازت قنطرة من الخشب فوق مجرى ماء، وبيوت بيرجيت تقع كلها على الشارع الأوحد بها، فليست هناك شوارع جانبية ومررنا بالكنيسة وفناء المدرسة، وأخيراً وقف الأوتوبيس ونزلنا.. وأعطينا السائق الحقائب وأدوات الصيد، وسرنا في الشارع قليلاً مارين بالبيوت البيضاء المبنية بالحجارة.. وقد جلست العائلات على أبوابها ترقب حركاتنا بفضول معروف عن أبناء الريف في كل مكان.. إلى أن بلغنا الخان..

وخرجت المرأة البدينة التي تدير الخان من المطبخ وصافحتنا ثم خلعت نظارتها ومسحتها، وأعادتها إلى وجهها..

وكان الجو بارداً داخل الخان، والرياح قد بدأت في الهبوب في الخارج، وأرسلت المرأة معنا فتاة إلى الطابق العلوي لتدلنا على حجرتنا.. وإذا بها سريران ومغسل وصوان للثياب وإيقونة كبيرة للعذراء.. والرياح لا تكف عن العبث بمصاريع النوافذ، فالحجرة تقع في الجانب الشمالي من الخان، واغتسلنا ولبسنا صدارات صوفية، ونزلنا إلى قاعة الطعام.. وجدران هذه القاعة من الصخر، وسقفها منخفض، وأرضها من الصخر كذلك، ولكن النصف الأسفل من الجدران مكسوا بخشب البلوط، والجو فيها شديد البرودة حتى أنك تستطيع أن ترى أنفاسك وهي تتكثف أولاً بأول..

وقال "بيل":

– يا إلهي.. إذا كان البرد غدا بهذه الشدة فلن أستطيع خوض الماء للصيد..

ووقع نظره على بيانو في أقصى أركان القاعة، فيما وراء الموائد، فاتجه إليه وشرع يعزف قائلاً:

– عسى أن يدفئني هذا بعض الشيء..

وتركته لأقابل المرأة وأسألها عن أجر الغرفة والطعام، فوضعت المرأة يديها تحت ميدعتها (مريلتها) ووجهت نظرها بعيداً عني حتى لا يلتقي بنظري، وقالت:

– ١٢ بيزيتا في اليوم..

– لماذا؟.. هذا ما كانوا يتقاضونه منا في بمبالونا المدينة الكبيرة.

ولم تقل المرأة شيئاً، بل نزعت نظارتها ومسحتها ثم أعادتها إلى عينيها، فقلت:

– أن هذا كثير جداً لأننا لم نكن ندفع أكثر من ١٢ بيزيتا في حجرة الفندق الكبير هناك..

– لقد ركبنا أخيراً حماما حديثا.

– أليس لديك ما هو أرخص من هذا؟

– ليس في الصيف.. نحن الآن في الموسم الكبير..

هذا مع أننا كنا النزلاء الوحيدين في الخان كله، بيد أنني هونت الأمر على نفسي بأن المدة التي سنقضيها قصيرة، ولن يكون الفرق ذا بال، وسألتها:

– هل الخمر ضمن هذا المبلغ؟

– أوه، طبعا..

– اتفقنا إذن..

وعدت إلى "بيل"، فنفخ في الهواء ليريني كيف أن أنفاسه تتكاثف، وواصل العزف فجلست إلى إحدى الموائد وجعلت أتطلع إلى الصور المعلقة فوق الجدران، فإذا هناك لوحة لأرانب ميتة، ولوحة أخرى بها بط ميت أيضاً.. فالكل بالاختصار موتى..

ورأيت في أحد الأركان صواناً ملآنا بزجاجات الخمور بكافة أصنافها، فجعلت أتأملها باهتمام و"بيل" مستمر في عزفه، وأخيراً قال:

– ما رأيك في "بانش" من الروم الساخن؟ فهذا العزف لا يكفي لتدفئتي على طول المدى..

وذهبت إلى المرأة وأفهمتها ما هو البانش، وكيف تصنعه، وبعد بضع دقائق جاءتنا فتاة بإبريق من الحجر يتصاعد منه البخار الحار، فنهض "بيل" عن البيانو

واقترب، وشربنا قدحا من البانش الساخن ونحن نصغى لصوت الريح، ثم قال:

– يبدو لي يا "جاك" أن هذا البانش ليس به الكثير من الروم..

فنهضت إلى الصوان، وأتيت منه بزجاجة الروم، وصببت منها كمية محترمة في الوعاء، فطرب "بيل" وقال:

– الحلول العملية أجدى من كل تشريع أو إجراء قانوني.

وجاءت الفتاة وأعدت المائدة للعشاء، ثم أحضرت إناء كبيراً به حساء خضروات ساخن ونبيذا، وبعد أن فرغنا من الحساء أتتنا بسمك مقلي ونوع من اللحم المطبوخ، وأخيراً جاءتنا بطبق ضخم من الفراولة البرية..

ولم نخرج بصفقة المغبون بما احتسيناه من النبيذ، وكانت الفتاة ملبية كلما طلبنا زجاجة إضافية، وإن كانت شديدة الخجل عموماً، ودخلت المرأة العجوز مرة واحدة، وأحصت ما شربناه من الزجاجات..

وبعد العشاء، صعدنا إلى الحجرة وانصرفنا إلى القراءة والتدخين في الفراش كي نحافظ على دفء أجسامنا..

واستيقظت في تلك الليلة مرة واحدة، وسمعت الريح تصرصر، فأسعدني أن أكون في الفراش قرير العين بالدفء..

ولما استيقظت في الصباح أطللت من النافذة، وكانت السحب قد انقشعت عن الجبال وصفت السماء، ورأيت تحت النافذة عربات نقل وعربة كبيرة للركاب ملقاة وقد عبثت العوامل الجوية بها كلها.. ولا شك أنها مهملة منذ استعملت الأوتوبيسات، وقفزت عنزة فوق سطح العربة الكبيرة، وراحت تلوح برأسها لبقية القطيع.. فلما لوحت لها بيدي خافت ونزلت بقفزة واحدة..

وكان "بيل" لا يزال نائماً، فارتديت ثيابي ولبست حذائي في الدهليز،

ونزلت إلى الطابق الأرضي فلم أجد هناك أحداً، ففتحت الباب وخرجت، وكان الجو رطبا في الخارج، وأشعة الشمس لم تظهر بعد كي تجفف العشب من قطرات الظل.. وفتشت في الفناء الخلفي للخان إلى أن عثرت على رفش، فأخذته إلى شاطئ الجدول ورحت أحفر منقباً عن بعض الديدان كي أستخدمها طعما للصيد، وكان الجدول صافي الماء ضحلا، بيد أني لا أظن أن به سمكا يستحق عناء الصيد..

وفي مدة وجيزة، استطعت أن أحصل على ملء صندوقين من صناديق الطباق من الديدان الجيدة، وكانت الماعز ترقبني وأنا أقوم بهذا العمل باهتمام شديد..وعندما عدت إلى الخان، وجدت المرأة قد استيقظت ونزلت إلى المطبخ، فطلبت منها أن تعد لنا القهوة ثم تحضر لنا غداء نحمله معنا.

ورأيت "بيل" جالسا على حرف الفراش، فقال لي:

– رأيتك من النافذة، ولم أشأ أن أقاطعك في عملك وإن لم أفقه ما هو، ماذا كنت تصنع؟.. هل كنت تدفن أموالك؟..

– يا لك من كسول..

– كنت إذن تعمل في سبيل الصالح العام؟ مرحى.. أريد منك أن تصنع مثل هذا الصنيع كل صباح..

– هيا قم أيها الكسول..

– أقوم؟ ليس من دأبي أن أقوم.. لا تتعب نفسك..

ورقد على السرير، وجذب الأغطية إلى ذقنه قائلا:

– جرب الآن أن تقنعني بالنهوض..

فتركته وانصرفت إلى إعداد أدوات الصيد ووضعها في كيس، ولما طال سكوتي سألني:

– ألست مهتما باقناعي؟

– عندي ما هو أهم.. إني نازل لأتناول الإفطار..

– الإفطار؟ ولماذا لم تقل هذا منذ البداية؟ كنت أحسبك تريد مني أن أنهض لمجرد اللهو، أما الطعام فمسألة أخرى تماماً.. ها أنت الآن تتكلم كلاما معقولاً، اذهب واحفر عن بضع ديدان أخرى ريثما أستعد..

– اذهب إلى الشيطان..

وحملت حقيبة أدوات الصيد ونزلت تاركا "بيل" يغني، وظللت أسمع غناءه إلى أن نزل، وكنت أثناء ذلك أطالع صحيفة أسبانية مضى على صدورها أسبوع كامل..

وجاءتنا الفتاة بالقهوة والخبز المحمر والزبد، وكانت القهوة جيدة وشربناها من أقداح كبيرة، ثم أتت الفتاة بكمية من مربى الشليك، ولفافة بها الغداء الذي سنحمله معنا، وأعطتنا كذلك زجاجتين من النبيذ كما طلبنا، وحمل "بيل" الحقيبة على ظهره وحملت أنا أدوات الصيد والشباك.. وسرنا في طريق بين الجبال نحو الغابة التي تغطي منكب تل مرتفع، وكنا نسمع طوال الوقت أصوات أجراس ترن في أعناق الماشية والأغنام التي ترعى في أكناف الربى..

وأفضى بنا المسير إلى الغابة ذات الأشجار العتيقة الوارفة التي تلقي من الضياء دنانير تفر من البنان، وتحجب وقدة الحرارة، ولكنها لا تفرض الظلام الدامس على السالكين، والدرب في تلك الغابة مطرد الصعود إلى أن أسلمنا في النهاية إلى قمة التل المكشوفة.. وإذا بنا فوق أعلى قمة بين تلك الوهاد والجبال التي رأيناها ونحن في بيرجيت، وإذا المنطقة كلها تحت أقدامنا.. وإذا

أمامنا عن كثب نباتات الشليك البري تنضجها أشعة شمس ذهبية.. وقلت لـ "بيل":

– علينا الآن أن نسير في هذه الدرب، فنخترق التلال التي أمامنا ونجتاز الغابة الماثلة هناك وتهبط إلى واد به النهر المنشود.. نهر إيراتي..

– يا لها من مسافة..

وهي مسافة كبيرة فعلا، والريف جميل يغري بالمشي.. ومع هذا نال منا الكلال عندما خرجنا من ظل الشجر إلى حرارة الشمس، وحمدنا الله لما وصلنا إلى خزان الماء تحت شلال يعترض المجرى.. فألقى "بيل" الحقيبة عن ظهره، ووضعت أنا الأدوات وتأهبنا للصيد، وخاض "بيل" النهر لدراسة التيار.. فقلت له:

– ما رأيك في أن نضع زجاجتي الخمر في النهر لتبردا؟

– وهو كذلك..

وذهبت إليه بالزجاجتين.. وكان الماء يتدفق باردا كالثلج. واختفى "بيل" بعد قليل عن نظري.. وانصرفت أنا إلى الصيد قرب المناطق.. وسرعان ما صدت ست سمكات كبيرات غسلتها جيداً بعد أن فتحت أحشاءها ونظفتها، ثم لففتها في الأعشاب ووضعتها داخل الحقيبة، واستلقيت في ظل شجرة، وشرعت أقرأ في كتاب لعلني كنت أقرأه للمرة الرابعة.. إلى أن ظهر "بيل" وسألني:

– هل ظفرت بشيء؟

– ست سمكات.. وأنت؟

فجلس "بيل" على الأرض وفتح حقيبته، وأخرج منها أربع سمكات أصغرها أكبر حجما من سمكاتي ووجهه يطفح بالبشر.. ثم اتجه إلى النهر لينظفها، وذهبت أنا إلى حيث وضعت زجاجتي الخمر فأتيت بهما وقد صارتا شديدة البرودة، وأخرجت الغداء وبسطته فوق صحيفة قديمة وفتحت

الزجاجتين.. وأقبلنا على الطعام بشهية، وكان عبارة عن دجاجة محمرة وبيض مسلوق.

وسألت "بيل":

– ترى لماذا خلق الله الدجاج؟

– ولماذا تسأل؟.. هذا سؤال لا سبيل إلى معرفة جوابه.. ولما كان مقامنا على وجه الدنيا قصير الأمد، فلنكتف بالاستمتاع والتسليم بحكمة الله والامتنان له لأنه خلق الدجاج..

– كل بيضة..

– الدجاجة أولاً، ثم البيضة.. هذا هو ترتيب أرسطو للأشياء، ويجب ألا ننسى أن نسجد لله شكراً في هذا الخلاء، لأنه خلق الدجاجة..

– هنا في الخلاء؟

– نعم.. فالخلاء هو أول معبد أقامه الله لنفسه.. وهل هناك ما هو أجمل وأجل من الطبيعة؟.. هيا بنا يا رجل نركع توا ونتقدم لله بالشكر..

وامتلأنا بالطعام والشراب، وأحسست في رأسي ثقلا فقلت:

– ما رأيك في تهويمة قصيرة؟

– فكرة جميلة..

ورقدنا بحيث كانت أدمغتنا في الظل.. وبعد قليل سألته:

– هل تميل حقا للنعاس؟

– كلا، كنت أفكر..

– ....

– قل لي يا "جاك".. ما هي حكاية "بريت"؟

– أي حكاياها تعني؟

– هل أحببتها يوما ما؟

– يقينا..

– وكم من الزمن دام هذا الحب؟

– مدة طويلة جدا..

– يا للعنة.. آسف جدا لأني فتحت هذا الموضوع..

– لا بأس.. أنا الآن لا أبالي..

– حقا!

– حقا.. ولكني أوثر ألف مرة ألا أخوض في هذا الموضوع.

– أحانق أنت علي لأنني سألتك؟

– وماذا بحق الشيطان يحنقني؟

– سأنام إذن..

وغطى وجهه بصحيفة، ولكنه لم يلبث أن سألني:

– اسمع يا "جاك".. هل أنت حقا كاثوليكي؟

– من الوجهة الرسمية..

– وما معنى هذا؟

– لا أدري..

– لا بأس، سأنام الآن.. فكف عن الكلام..

وبدأ النعاس يراودني.. ولما استيقظت كان "بيل" يحزم متاعنا، وقد طالت ظلال الأشجار، ووجدت أعضاء جسمي وقد تصلبت من النوم الطويل على الأرض، وسألني "بيل":

– هل صحوت؟ ولماذا أزعجت نفسك؟ لماذا لم تبت هذه الليلة هنا يا رجل؟..

وتمطيت، وأخذت أفرك عيني، وقال "بيل":

– حلمت حلماً جميلاً جداً.. لا أذكر بالضبط ما هو..

– أنا لا أظن أني حلمت..

– ينبغي أن تحلم.. جميع رجالنا الكبار حالمون..

وانهمكت في إعداد حقيبتي وحزم أدوات الصيد.. فلما فرغت اتجهنا صوب الخان من الطريق الذي جئنا منه، وكان الظلام قد خيم عندما وصلنا، والبرد يشتد في الليل بتلك الجهة، وقضينا السهرة في لعب الورق مع رجل انجليزي اسمه هاريس جاء ذلك اليوم أيضا للصيد، وهو ظريف جدا وقد صحبنا في اليومين التاليين إلى النهر للصيد معنا..

ولم تصلنا كلمة واحدة من "روبرت كون"..

الفصل الثاني عشر

وذات صباح، نزلت إلى قاعة المائدة لأتناول إفطاري، فوجدت "هاريس" قد سبقني إلى المائدة. وقد جلس يقرأ الصحف من خلال نظارته، فرفع إلي عينيه وقال باسما:

– طاب صباحك. جاءك خطاب، فقد مررت بالبريد فأعطوني خطابك مع خطابي..

وكان الخطاب فوق موضعي من المائدة مع فنجان القهوة، وانصرف "هاريس" إلى صحيفته، وفضضت الخطاب وإذا به مرسل من سان سباستيان يوم الأحد، وقد جاء فيه:

"عزيزي "جاك"..

"وصلنا إلى سان سباستيان يوم الجمعة، وأصيبت "بريت" بإغماء في القطار، فقررنا البقاء هنا ثلاثة أيام حرصا على راحتها.. وسنصل إلى فندق مونتويا يوم الثلاثاء وإن كنت لا أدري بالضبط في أية ساعة، فأرجو أن ترسل إلينا هناك مذكرة تبين لنا فيها كيف نلحق بكم يوم الأربعاء، ونحن في شدة الأسف لهذا التأخير.. تحياتنا إلى الجميع..

"مايك"

ولما فرغت من القراءة سألت "هاريس":

– في أي يوم نحن من أيام الأسبوع؟

– أظننا في يوم الأربعاء.. نعم بالتأكيد هو يوم الأربعاء، وإنه لعجيب حقاً

كيف لا يحس الإنسان بمرور الأيام هنا في الجبال..

– أجل.. فها نحن قضينا هنا قرابة الأسبوع..

– أرجو ألا تكون عازماً أنت وصديقك على الرحيل..

– أخشى أنه لا مفر لنا من الرحيل بأوتوبيس بعد الظهر..

– يا للحظ العاثر.. كنت أمني النفس برحلة أخرى معكما للصيد..

– لابد لنا من السفر على بمبلونا لنقابل بعض الناس، ولماذا لا تأتي أنت إلى بمبلونا؟ في وسعنا أن نلعب هناك البريدج، وسيقام هناك مهرجان عظيم للمصارعة..

– شكراً لك على هذه الدعوة.. ولكني سأبقى هنا فترة أخرى للصيد.

وبعد الإفطار جلست مع "بيل" على مقعد خشبي أمام الخان كي نتدارس الموقف، وإذا بفتاة تقبل علينا من جهة المدينة.. ثم وقفت قبالتنا، وأخرجت من حقيبة جلدية تحملها برقية، وبعد أن سألتني عن اسمي أعطتني إياها.. وإذا بها من "كون" وقد كتبها بالأسبانية:

– حاضر يوم الخميس..

وعلق "بيل" على البرقية تعليقا لاذعا.. وقلت:

– إننا عائدان على كل حال، فليس هناك مبرر لإحضار "بريت" و"مايك" إلى هنا ثم العودة ثانية قبل المهرجان، فهل ترى داعيا للرد على هذه البرقية؟

– من المستحسن أن نرد، لأنه لا لزوم للجلافة..

وسرنا إلى مكتب البرق، وأرسلنا البرقية التالية:

– نصل الليلة..

والتقينا بعد ذلك بـ "هاريس" وصحبناه لزيارة الدير العتيق القائم فوق الجبل، ثم لمحنا في طريق العودة حانة لم نكن لاحظنا وجودها من قبل.. فدخلناها، وشرب كل منا زجاجة نبيد كاملة، وأصر "هاريس" على أن يدفع هو كل الحساب على سبيل التحية، وأبدى تأثراً كبيراً لفراقنا بدرجة لم نكن نتوقعها من الجليزي..

وبعد الشراب عدنا إلى الخان و"هاريس" بيننا، وقد نال منا السكر، وفي الخان تغدينا ثم صحبنا "هاريس" إلى الأوتوبيس، وأعطانا بطاقته وبها عنوانه بلندن، وعنوان ناديه، ومحل عمله، وألح علينا أن نزوره هناك.. وتحرك الأوتوبيس و"هاريس" واقف أمام مكتب البريد يلوح لنا بيده..

وكان وصولنا إلى بمبالونا في ساعة متأخرة من بعد الظهر، ووقف بنا الأوتوبيس أمام فندق مونتويا، ورأينا العمال يقومون بتعليق الزينات الكهربائية استعداداً للمهرجان..

وعلى سلم الفندق، قابلنا مونتويا فصافحنا مرحبا، وقال:

– وصل أصحابك، مستر "كامبل"، ومستر "كون"، وليدي "آشلي".

– ومتى وصلوا؟

– أمس.. وقد أعطيتهم الحجرات التي اتفقنا عليها..

– وأين هم الآن؟

– عند الساحة، فالليلة تصل شيران فيلار، وغدا تصل شيران ميورا.. ألستم جميعا ذاهبين لمشاهدة الاستعراض؟

– طبعا..

– أراك هناك إذن..

ومونتويا له ولع شديد بالمصارعة، وجميع المشجعين الكبار للعبة ينزلون عنده ويجدون لديه كل إكرام..

وما أن خرجنا للبحث عن رفاقنا، حتى وجدناهم جالسين في مقهى ايرونا، واستقبلنا "مايك" بحماسة بالغة، وكانت "بريت" سعيدة جدا، وسألت "كون":

– أين كنت يا رجل؟

– ذهبت إلى سان سباستيان وأتيت بهما إلى هنا..

فقالت "بريت":

– كلام فارغ.. كنا ننوي أن نصل قبل اليوم لولا أنك جئت..

– بالعكس.. لولاي لما وصلتما إلى هنا اطلاقا..

فغيرت "بريت" الموضوع قائلة:

– ما أشد سواد بشرتكما.. ولاسيما "بيل"..

وقال "مايك":

– هل تمتعتما بالصيد؟

– جدا.. وافتقدناكما..

وأخذنا في أحاديث خفيفة وبعد أن شربنا عدة أقداح سرنا في اتجاه المدينة، وكنت في البداية أمشي بجوار "بريت" بيد أن "كون" جاء وسار في الجانب الآخر بحيث لا نقول كلمة واحدة من غير أن يسمعها. ووجدنا الناس جميعا يمشون نحو ساحة المحطة كي يكونوا في استقبال الثيران ساعة تفريغها، ومررنا في طريقنا بحانة علقت عليها لافتة تعلن عن بيع النبيذ الجيد بثلاثين سنتا، فقالت "بريت":

– هنا سنشرب عندما تنخفض ميزانيتنا..

وبعد قليل وصلنا إلى حظيرة الثيران، والدخول إليها بتذاكر خاصة ثمنها غير زهيد، ومع ذلك كان الزحام شديداً جداً..

واشترينا التذاكر ودخلنا مع الداخلين..والحظائر بها جدار يصعد إليه الناس بسلالم خشبية ليشاهدوا إدخال الثيران من الفناء إلى الأقسام المخصصة لكل مجموعة منها على حدة، والثيران تصل إلى الحظائر في أقفاص ملونة باللون الرمادي، وتحملها القطارات من مزارع مخصصة لتربيتها في قشتاله. وعلى كل قفص اسم المنتج وعلامته التجارية.

وصعدنا فوق الجدار، ووجدنا لنا مكانا يطل على الحظيرة الداخلية.. رأينا أمامنا التل الذي تقوم فوقه القلعة القديمة، وقد احتشد الناس فوقه حتى توارت معالم الإطلال، ولم يعد ظاهراً إلا سواد الرءوس، فقالت "بريت":

– ما هذا الزحام؟.. لابد أن الناس يتوقعون أن يروا شيئاً هاما.

– إنهم يريدون أن يروا الثيران.. وهذا كل ما هناك..

ولمحنا "مايك" و"بيل" فوق الجدار المقابل لنا، فلوحنا لهما.. وبعد قليل رأينا بغلاً يجر قفصا ويضعه أمام إحدى بوابات الحظائر، واستعد الناس الواقفون فوق الجدار كي يجذبوا باب القفص، ثم باب البوابة، وفي الوقت نفسه، دخل الحظيرة من الجانب الآخر اثنان من السياس، وقد اتجهت أبصارهم إلى الباب الذي سيدخل منه الثور، وقالت "بريت":

– إن وجوههم لا تلوح عليها إمارات السعادة..

وتكاثر الناس فوق الجدار ورفعوا الباب.. وانثنيت إلى الأمام وحاولت أن أرى ما بداخل القفص، ولكن الظلام كان شديدا، ودق بعضهم على القفص

بقضيب من حديد، فسمع في الداخل صوت كصوت الانفجار.. كان الثور ينطح جوانب القفص بقرنيه فيحدث ضجة عظيمة، ثم رأيت أنفا أسود اللون، واندفع الثور بحركة هجوم إلى الحظيرة.. ولما وقف فوق الدريس المعد هناك لاستقباله من قبل جعل يضرب بحوافره، وينظر إلى الجماهير المحتشدة لتحيته، وجميع عضلات جسمه تنتفض، وتراجع السائسان وعيونهما لا تفارق ذلك الخصم الرهيب..

ولمحهما الثور، وهجم على الفور، وصاحت "بريت":

– ما أجمله..

فقلت لها:

– انتبهي جيدا لحركاته.. إن له قرنا أيمن وقرنا أيسر مثلما للمصارع تماما..

– حقاً!

–انظر وسترين بنفسك..

وكان أحد الواقفين وراء القضبان قد أخذ يناوشه بالصياح، فاتجه الثور إليه وترك السائسين.. وراح يحاول إصابته من خلال قضبان القفص بهذا القرن تارة وبالآخر تارة أخرى..

وتأوهت "بريت" وقالت:

– إنه يحرك قرنيه بسرعة كبيرة، فلا أستطيع أن أتبين حركاته.

– اصبري، فسوف يطلقون ثورا آخر بعد دقيقة واحدة..

وبالفعل جرت البغال قفصا آخر إلى فتحة البوابة، ولم تفلح مع هذا الثور محاولات التمويه من وراء القضبان، واستمر في هجومه على السائسين، وأسرع

المسكينان بالفرار منه.. بيد أنه استطاع أن يصيب أحدهما، فقلت لـ "بريت":

– لا تنظري..

ولكني وجدتها تنظر مبهورة كالمسحورة فقلت:

– إن كان المنظر لا يؤذيك فلا بأس.. هذه علامة طيبة..

فهتفت منتشية:

– رأيته.. رأيته.. رأيت كيف تحول من أحد قرنيه إلى الآخر.. الأيمن أولا ثم الأيسر..

– بديع جدا..

وسقط السائس المسكين على الأرض فلم يتحرك، وتركه الثور إلى السائس الآخر الذي كان ينظر إلى ما يحدث لزميله كالمأخوذ.. وحاول أن يتفادى الإصابة، بيد أن الثور أدركه وضربه في فخذه ضربة خفيفة، ثم وقف رافع الرأس ينظر إلى الجمهور الذي يرفع عقيرته بالتهليل، وعضلاته الضخمة تهتز مع أنفاسه..

ونزلنا مع الجمهور عن الجدار، بعد أن تم إدخال عدد كاف من الثيران إلى الحظيرة، تكون منها قطيع مسالم لم يحاول أفراده التعرض للسياس، وركبنا عربة إلى المقهى، وجاء "مايك" و"بيل" بعد نصف ساعة تقريبا لأنهما توقفا في طريقهما بحانة ما، واحتسيا بضعة أقداح..وسألتني "بريت" ونحن في المقهى:

– كان المشهد عجيباً حقا، ولكني لا أفهم لماذا لم يكن الفحول الذين دخلوا في النهاية ميالين للقتال.

فأجبتها وأنا أرمق "كون" بطرف عيني:

– هذه الحيوانات لا يخشى منها أي خطر إلا عندما تجد نفسها وحيدة.. أما حينما تجد رفاقها معها لا تحس بالوحشة التي تدفعها إلى العداوة والضراوة..

وقال "مايك":

– هل رأيت ذلك الثور الذي نطح السائس؟كان عجيبا جدا..

وقال "كون":

– الحقيقة أن حياة السائس في حلقات المصارعة لا تطاق..

فرد عليه "مايك" بدهشة:

– هل هذا رأيك حقا؟كنت أحسبك تفضل أن تكون سائسا منهم..!

– ماذا تعني بهذا القول يا "مايك"؟

– أعني أن حياتهم هادئة.. فهم لا يقولون شيئاً إطلاقا، وكل ما يفعلونه هو الوقوف والحومان بلا عمل ولا لزوم..

وشعرنا كلنا بالحرج.. وضحكت "بريت"، وظهر الغضب على وجه "كون"، واستطرد "مايك" يقول:

– كنت أعتقد أنك تصلح لهذا العمل تماماً ،لأنك ما كنت تحتاج إلى أن تقول كلمة واحدة، هيا يا "روبرت" قل شيئا.. لا تجلس هكذا صامتا كالسياس طوال الوقت..

وقالت "بريت" محتجة:

– دع هذا يا "مايك".. اسكت.. أنت سكران..

– أنا لست سكرانا.. أنا جاد جدا.. إني أسألكم بكل وضوح: هل ينوي

"روبرت كون" أن يلاحق "بريت" طوال الوقت كأنه سائس؟

وصاحت "بريت":

– اخرس يا "مايك".. حاول أن تكون مهذبا بعض الشيء

– على التهذيب اللعنة.. من الذي يكترث اليوم بالتهذيب أو بالتربية سوى من يربون الثيران؟.. لماذا لا تقول شيئا يا "روبرت كون"؟.. لا تجلس هكذا صامتا كأنك في جنازة.. وماذا جرى في الدنيا إذا ظلت "بريت" صاحبتك بضعة أيام؟ لقد فعلت هذا –من قبل– مع كثيرين جدا ممن هم خير منك بمراحل..

وانتفض "كون" واقفا وقال:

– اخرس يا "مايك"..

– اوه.. لا تقف هكذا وكأنك تستعد كي تضربني، فهذا لن يقدم أو يؤخر بالنسبة لي.. وقل لي يا "روبرت" لماذا تتبع "بريت" في كل مكان مثل السائس الأبله؟.. ألا تشعر أنك غير مرغوب فيك؟.. لقد حضرت إلى سباستيان من غير أن يكون أحد راغبا في حضورك، وظللت تتبع "بريت" في كل مكان مثل السائس الأبله.. أتعتقد أن هذا شيء لائق؟

– أسكت.. أنت سكران يا "مايك"..

– لعلني سكران فعلا.. لماذا لست سكرانا أنت أيضاً؟.. لماذا لا تسكر أنت إطلاقا يا "روبرت"؟ أنت تعلم تماما أنك لم تستمتع بالوقت في سان سباستيان، لأنه ما من أحد من أصحابنا وجه إليك الدعوة إلى أية حفلة من الحفلات التي أقاموها، ولا تستطيع أن توجه إليهم اللوم.. وقد رجوتهم أن يوجهوا إليك الدعوات، بيد أنهم أبوا ولا لوم عليهم في هذا.. أليس كذلك؟

أجبني يا "روبرت": هل عليهم لوم في هذا الإهمال المقصود؟

– إذهب إلى الشيطان يا "مايك"..

– أنا لا ألومهم.. فهل تستطيع أنت أن تلومهم؟ ساءهم أن تتبع "بريت" في كل مكان، فلماذا تفعل ذلك؟ أليست لك آداب؟ ألا يخطر ببالك أن هذا يؤذي شعوري؟

فقالت "بريت":

– ما أعجب أن تتحدث يا "مايك" عن الأدب والتهذيب!

وقال "بيل:

– قم معي يا "روبرت"..

وعاد "مايك" يقول:

– لا تذهب.. قل لي أولا لماذا تتبع "بريت"؟ ألا تريد أن تصدق أن دورك قد انتهى؟

وتأبط "بيل" ذراع "كون" وانصرف به ووجهه محتقن.. وظل "مايك" يتكلم وأنا مصغ.. أما "بريت" فكان الاستياء ظاهرا عليها، ولم تلبث أن قاطعته:

– لا تكن غبيا إلى هذا الحد..

ثم التفتت إلي قائلة:

– وإن كنت لا أنكر طبعا أنه سكران..

واختفت نبرة الانفعال من صوت "مايك" وعاوده الصفاء:

– لست بالطبع سكرانا إلى الدرجة التي خيلت لكم..

فقالت "بريت":

– أعلم ذلك..

فقلت:

– ليس منا على كل حال من يعتبر مفيقا..

– ولم أقل مع هذا كلمة واحدة لا أعنيها بحذافيرها..

فضحكت "بريت" وقالت:

– ولكنك عبرت عن مرادك بأسوأ طريقة ممكنة!

– ولكنه كان حيوانا للغاية.. جاء إلى سان سباستيان حيث لا يريده أحد، وظل فارضا نفسه على "بريت"، لا يفعل شيئا سوى النظر إليها.. فأورثني هذا السلوك الضيق والمرض..

وقالت "بريت":

– الحق أن سلوكه كان سيئا جدا..

– اسمع يا "جاك".. "بريت" كانت لها صلات برجال من قبل.. إنها تخبرني بكل شيء بكل صراحة، وقد أعطتني رسائل هذا المخلوق "كون" لأقرأها، ولكني رفضت أن أنظر فيها..

– هذا نبل عظيم منك..

– ليست المسألة على هذه الصورة يا "جاك".. "بريت" سبق لها علاقات مع رجال، بيد أن أحدا منهم لم يكن يهوديا، ولم يحدث أن أحدا منهم فرض نفسه عليها.

فقالت "بريت":

– هيا يا "مايكل".. أترك هذا الموضوع الآن، ويجب عليك أن توطن النفس على الاحتمال، لأن الرجل هنا معنا وسيبقى إلى نهاية المهرجان، فلا تفسد على نفسك وعلينا لذة المتعة..

– فليحسن السلوك إذن.. قل له يا "جاك" أن يراعي اللياقة، وإلا فعليه أن يرحل عنا..

– إنها لمهمة لطيفة جدا تكلفني بها يا "مايك"..

– أخبري "جاك" يا "بريت" بماذا يناديك "كون" للتدليل..

– أوه لا أستطيع..

– هيا.. هيا.. فكلنا هنا أصدقاء..

– لا أستطيع.. إنه اسم سخيف جدا..

– سأقوله أنا..

– لا تفعل يا "مايك".. لا تكن غبيا..

– أنه يسميها "سيرسه".. ذلك الوحش الخرافي الذي كان يسحر كل من رآه خنزيرا.. إنه يؤكد لها أن تأثيرها على الرجال مثل هذا بالضبط.. تثير فيهم أحط الإحساسات البهيمية، وتحولهم من آدميين إلى خنازير.. اسم رائع، أليس كذلك؟..

وقالت "بريت":

– لا تنكر عليه أنه يحسن الكتابة عندما يريد..

وقلت:

– كفى الآن كلاما في هذه المسألة، فيجب أن ندخل الآن لنأكل.

وسألنا "مايك" ببساطة:

– سنجد "كون" الآن بالداخل.. فكيف ألقاه؟

– تصرف معه وكأن شيئاً لم يحدث..

– هذا ليس شاقا على نفسي، لأني لا أشعر بأي حرج..

– وإذا قال لك أي شيء، قل إنك كنت سكرانا وأنك لا تذكر شيئا مما حدث.

وقالت "بريت":

– هيا بنا.. فلابد لي أن استحم قبل العشاء..

واجتزنا الميدان في اتجاه الفندق، وصعدا إلى فوق، وبقيت أنا بالطابق الأسفل لأتحدث إلى مونتويا، وسألني:

– ما رأيك في ثيران هذه السنة؟

– جيدة..

– في رأيي أنها ثيران جيدة، بيد أنها ليست جيدة جدا..

– وما الذي لا يعجبك فيها؟

– لا أدري بالضبط.. كل ما هناك أنها لم تمنحني الشعور بالامتياز، ذلك الشعور الغامض الذي لا يمكن تعليله..

– فهمت مرادك..

– وما رأي أصحابك؟

– بديعة..

– الحمد لله..

وصعدت إلى حجرتي.. وفي طريقي وجدت "بيل" واقفا في شرفة حجرته، فوقت بجواره وسألته:

– أين "كون"؟

– فوق.. في حجرته..

– وما شعوره؟

– كالجحيم بطبيعة الحال، فقد كان "مايك" بشعا.. ما أشنعه حين يكون سكرانا.. أليس كذلك؟

– إنه لم يكن سكرانا إلى الدرجة التي تتصورها..

– هراء.. أنا وحدي أعرف ماذا وكم شربنا قبل أن نلحق بكم في المقهى.. لقد كان سكرانا جدا..

– ومع هذا لم يكن سكرانا إلى درجة الغيبوبة..

– ولنفرض.. لقد كان قاسيا جدا، وأنا شخصيا لا أحب "كون" والله على ما أقول شهيد، وأعتقد أنه كان سخيفا حين ذهب إلى سان سباستيان بهذه الصورة، بيد أنه لا يجوز لأحد أن يكلم إنسانا كما كلم "مايك".. "كون"..

– وهل أعجبتك الثيران؟

– جدا، ومتى يبدأ المهرجان؟

– بعد غد..

– يجب علينا أن نبعد "مايك" عن درجة السكر إلى ذلك الحين..

– بل يحسن الآن أن نرتدي ثيابنا للعشاء..

وكان العشاء في تلك الليلة لطيفا للغاية، وكانت "بريت" رائعة الجمال في

ثوبها الأسود، بلا أكمام، وتصنع "مايك" الهدوء كأن شيئاً لم يحدث، واضطررنا أن نصعد أنا و"بيل" كي نأتي بـ "كون"، وتصنع هو أيضا التجاهل التام، بيد أنه لم يستطع تحويل نظره عن "بريت" طول الوقت، وأريقت الخمر بكثرة فنسينا تحت تأثيرها الشعور بالحرج والتقزز.. حتى أنني أحسست أنهم جميعاً أشخاص ظرفاً ولا غبار عليهم..

الفصل الثالث عشر

لا أتذكر في أية ساعة بالضبط أويت إلى فراشي، وإن كنت أتذكر بصورة غامضة أني خلعت ثيابي، وارتديت "روبا" مما يلبس للحمام، ثم وقفت في الشرفة، وكنت مدركا أني في حالة سكر شديد.. وعندما دخلت من الشرفة أضأت النور الموجود فوق الفراش، وشرعت أقرأ كتابا لتورجنيف، ولعلني أعدت قراءة صفحتين بعينهما عدة مرات، ومع أني قرأت تلك الأقصوصة من قبل إلا أنها بدت لي وكأنها جديدة تماما..

كنت شديد السكر، ولكني لم أرد أن أقفل عيني خوفا من أن تدور بي الحجرة.. أما وأنا مستمر في القراءة بأي صورة من الصور فهذا الإحساس لا يراودني..

وسمعت "بريت" و"كون" يصعدان السلم.. وأمام الباب قال لها "كون" طاب مساؤك، ثم صعد إلى حجرته.. وسمعت "بريت" تدخل الحجرة المجاورة – حجرة "مايك"– وكان "مايك" قد أوى بالفعل إلى فراشه، لأنه عاد معي منذ ساعة، فاستيقظ عند دخولها، ولبثا يتكلمان.. وسمعتهما يضحكان، فأطفأت المصباح، وحاولت أن أنام.. فلم يعد ضرورياً أن أواصل القراءة، وقد صار في وسعي أن أغمض عيني من غير أن أشعر بذلك الدوار.. ومع هذا لم أستطع النوم، واستولى على شعور بالوحشة والتعاسة لم يفارقني منذ ستة أشهر.. ألا فلتذهب كل النساء إلى الجحيم.. وإلى الجحيم أنت أيضاً يا "بريت آشلي"..

إن النساء صديقات لطيفات، لطيفات جدا.. ففي البداية يجب أن تحب الواحدة منهن كي يكون هذا الحب أساسا صالحا لصداقتكما وقد كنت أقنع

نفسي بتلك الصداقة، واستمتع بصحبتها من غير غرم على نفسي.. كمن يحصل على سلعة بغير مقابل، ولكني كنت واهما جدا.. فكل ما هناك أن الحساب تأخرت "فاتورته" إلى أن تراكم الحساب، لقد كانت "الفاتورة" أمراً محتوما، وها أنا لا أجد مفرا من أدائها، وهي باهظة، فوق طاقتي بكثير..

وكان في حسباني أني انتهيت فيما مضى من عذابي من أداء كل "فاتورة" ممكن أن يخطر للقدر أن يقدمها لي.. ولكن خاب ظني، ومع ذلك فأنا مؤمن أن الزمن لابد أن يداوي كل هذه المتاعب. بعد خمس سنوات مثلا، سوف أنظر إلى آلامي الحاضرة فأضحك من سخافتها!

وقد لا يكون هذا صحيحا.. ليس لهذا أهمية الآن، فالمهم عندي الآن هو كيف أجتاز هذه المحنة، ومما يزيد في وطأتها أن "مايك" يعامل "كون" هذه المعاملة القاسية.. ف "مايك" سكير من النوع الرديء جدا، أما "بريت" فسكيرة من النوع اللطيف.. هو متى ثمل استخرجت الخمر منه أسوأ ما في نفسه من المشاعر، وهي متى ثملت استخرجت منها الخمر كل ما في طبعها من دماثة، وأما "كون" فلا يمكن أن يسكر بالمعنى المتعارف عليه.. ولست أنكر أني أشعر براحة حين أرى "مايك" يهين "كون".. راحة وقتية، ومع هذا أتمنى ألا يفعل، لما يعقبه ذلك من شعوري بالتقزز من نفسي ومن قسوتي وشماتتي به..

استعصى النوم فأوقدت النور مرة أخرى وشرعت في القراءة.. عدت لقراءة تورجنيف، فخيل إلي لكثرة ما قرأت تلك الأقصوصة وأنا سكران غاية السكر بالأمس، أن القصة حدثت لي أنا في وقت مضى من أوقات حياتي.. وظل هذا الإحساس يراودني إلى أن واتاني النوم أخيراً قرب الفجر..

ومر اليومان التاليان في بمبالونا بهدوء، ولم تحدث مشاحنات بين "كون" و"مايك".. وكانت المدينة كلها منهمكة في الاستعداد للمهرجان، فالعمال

يقيمون البوابات لسد منافذ الشوارع الجانبية عندما تطلق الثيران من حظائرها لتندفع في الشوارع في بكرة الصباح، وهي في طريقها إلى ساحة المصارعة، وفوق الهضبة كان المساعدون يقومون بتدريب الخيل التي ستشترك في الحفلات المقبلة، وفي ساحة المصارعة نفسها، كان النجارون يقومون بإصلاح المقاعد المتداعية، وترميم الحواجز الضعيفة، وقامت النساء العجائز بتنظيف المقاصير الفاخرة استعداداً لاستقبال الناس..

وفي خارج الميدان، تم إعداد الشارع الأخير المفضي إلى المدخل.. وفي هذا الشارع سيتدفق جمهور ضخم، ومن ورائهم الثيران، صبيحة أول يوم من أيام المصارعة..

وعبر السهل الكبير –حيث ترعى في العادة، قطعان الخيل والأغنام– تراءت خيام أقامها الغجر، وقد استقرت عرباتهم تحت الأشجار الظليلة، وحول الساحة أخذ تجار النبيذ يقيمون أكشاكا لبيع الخمر ويعلقون لافتات كبيرة للإعلان عن جودة أصناف العرق والنبيذ ورخص أسعاره..

أما في الميدان الكبير الذي يعتبر وسط المدينة، فلم يحدث بعد أي تغيير.. فجلسنا على الكراسي الكبيرة المصنوعة من القش على شرفة المقهى كالعادة، ورحنا نرقب الأوتوبيسات وهي تفرغ باستمرار أحمالها من سكان الجبال، وتحمل سواهم عائدين بعد أن فرغوا من شأنهم في السوق، وسيارات الأوتوبيس هي علامة الحياة الوحيدة في الميدان، فيما عدا الحمام الأبيض الأليف، ورجل البلدية الذي ينظف الميدان ويسقى الشجر ويرش الطريق.

وفي المساء يتبدل المنظر، فبعد العشاء بساعة ترى كل فتيات المدينة الجميلات وضباط الحامية المقيمين في الثكنات، وكذلك جميع الوجهاء وأهل الأناقة يسيرون في الميدان تحت الشجر على مهل، في حين تكتظ المقاهي

بالرواد الذين يمتعون العين وهم يحتسون القهوة أو الخمر ويدخنون ويسمرون..

وفي فترة الصباح، كنت أجلس عادة في المقهى أطالع الصحف الصادرة في مدريد.. وبعد الفراغ من ذلك أقوم لأتمشى في شوارع المدينة، أو أغادر المدينة إلى أرباضها من الريف المحيط بها، وكان "بيل" في بعض الأحيان يصحبني، وفي أحيان أخرى ينفرد بنفسه للكتابة في حجرته، وأما "كون" فكان يقضي فترة الصباح في محاولة تعلم اللغة الأسبانية، أو في حلاقة ذقنه عند الحلاق.. وأما "مايك" و"بريت" فلا يغادران فراشهما بحال من الأحوال قبل الظهر.

وفي ساعة الظهر، يجتمع الجميع في مقهى أيرونا حيث نشرب الفرموت.. ولا يصل أحد بهذا الشراب إلى حد السكر، ولهذا لم يفلت الزمام من أحد منا، واستطعنا جميعا أن نحتفظ بمظهر التهذيب..

وتوجهت مرتين إلى الكنيسة، وفي إحدى هاتين المرتين صحبت "بريت" معي لأنها قالت أنها تريد أن تراني وأنا ذاهب إلى الاعتراف فقلت لها أني لا أحبذ الاعتراف.. ثم أنني بفرض أقدامي على الاعتراف، فلن تجد في سماع اعترافاتي ما يسليها كما تتوقع، وفضلاً عن هذا سيكون الاعتراف بلغة لا تفهمها..

والتقينا عند خروجنا من الكنيسة بـ "كون"، وكان واضحا جدا أنه تبعنا مقتفيا خطواتنا، وتربص ينتظر خروجنا.. ومع هذا كان لطيفا مرحا، وذهبنا نحن الثلاثة للتنزه سيرا على الأقدام إلى معسكر الغجر، وطلبت "بريت" إلى إحدى الغجريات أن تقرأ لها طالعها..

كان صباحا جميلاً على الجملة، والسحب كانت عالية فوق الجبال، وفي الليلة السابقة أمطرت كثيرا، ولذا كان الجو لطيفا وشعرت بميل إلى "كون"..

فهذا الجو لا يسمح بكراهية..

وفي ظهر يوم الأحد السادس من يوليو "انفجر" المهرجان، وليس ثمة من وسيلة أخرى لوصف ما يحدث في ذلك اليوم، فالناس كانوا يفدون طول النهار على المدينة من الريف.. بيد أن المدينة كانت تستوعبهم فلا يبدو لهم أثر ملحوظ، وكان الميدان ساكنا كالمألوف من عادته كل يوم، لأن الفلاحين الذين جاءوا للاحتفال مكدسون في الحانات الرخيصة بأطراف المدينة، حيث يعبون الخمر استعدادا للمهرجان..

ومن الريفيين إذا جاءوا إلى المدينة احتفظوا طويلا بقيم الأشياء كما تعودوها، ولا يتخلون عن ذلك إلا تدريجيا، ولذا لا يمكنهم دفع الأثمان المرتفعة نسبيا التي تتقاضاها المقاهي للخمر في بداية إقامتهم، ويفضلون الشرب بثمن بخس في الحانات الرخيصة لأن للنقود في نظرهم قيمتها الممثلة في أيام من العمل الشاق بالنسبة للأجراء، وفي زكائب من القمح بالنسبة للمزارعين منهم، أما بعد أن يسكروا وتستولي عليهم روح المهرجان، فإنهم لا يبالون بالمال ويشربون الخمر في كل مكان..

وها نحن الآن في بداية المهرجان.. مهرجان سان فيرمين، وقد قضى الفلاحون الوقت منذ الصباح الباكر في الحانات، فعندما كنت متوجها في الصباح على أثر يقظتي إلى الكنيسة ترامت إلى سمعي من الشوارع الضيقة الجانبية أصوات غنائهم الريفي من خلال الأبواب المفتوحة.. لقد كانوا يعبئون انفعالاتهم..

وفي الكاتدرائية، وجدت جمهورا كبيرا أتى لحضور قداس الساعة الحادية عشرة.. فسان فيرمين مهرجان ديني هام أيضاً.

وبعد الانصراف من الكنيسة، نزلت من التل الذي تقوم فوقه هذه البيعة، وتوجهت إلى المقهى في الميدان، وكان الوقت قبل الظهر بقليل، وإذا بـ "كون" و"بيل" جالسين إلى إحدى الموائد، وإذا بتلك الموائد ذات السطوح الرخامية والكراسي المريحة المصنوعة من القش قد اختفت تماماً وحلت محلها موائد من الحديد وكراسي صلبة، وصار منظر المقهى على العموم أشبه بمنظر ساحة قتال.. فالسقاة لا يتركونك الآن إلى أن تستدعيهم، بل ما أن تستقر في موضعك حتى يأتيك أحدهم ليسأل ماذا تريد أن تشرب..

وجاءني ساق بمجرد أن جلست، فسألت "بيل" و"كون":

– ماذا شربتما؟

– شري..

فطلبت من الساقي أن يأتيني بقدح منه، وقبل أن يأتي بالقدح أعلن الصاروخ ابتداء المهرجان.. وهذا الصاروخ يرتفع في الجو فوق مستوى البيوت العالية في الميدان، ثم أعقب ذلك صاروخ ثان انعقد دخانه في الهواء.. وما إن تبدد الدخان قليلا حتى تجمع خلق كثير تحت البواكي التي كانت خالية منذ برهة وجيزة، وقد رفع كل واحد قارورة خمر كبيرة فوق رأسه، وبلغ من شدة الزحام أن الساقي وجد صعوبة كبيرة في الوصول إلى مائدتنا، لأن الناس كانوا يتدفقون على الميدان من جميع الجهات في وقت واحد. ومن رأس الشارع، أبصرنا الطبول والزمور قادمة، ومن خلفها جمهور كبير من الشبان والرجال والغلمان يرقصون..

وعندما كانت الموسيقى تكف عن العزف، كانوا جميعا ينبطحون على الأرض حتى تشرع الموسيقى في الصخب، فإذا هم يندفعون واقفين ليستأنفوا

الرقص.. ذلك الرقص الذي لا ترى فيه إلا رؤوسا وأكتافا ترتفع وتنخفض على إيقاع النغم..

وجميع الراقصين ذكور، كل فريق منهم لهم موسيقاهم الخاصة التي تعزف لهم.. وكلهم يرتدون ثياب العمال الزرقاء، وحول رؤوسهم المناديل الحمراء.. وفوق الفريق كله لافتة كبيرة مكتوب عليها:

– تحيا الخمر.. تحيا الثيران.. يحيا الأجانب..

وسأل "كون":

– أين هم الأجانب؟

فقال "بيل":

– نحن الأجانب..

واستمر إطلاق الصواريخ، واكتظت المقاهي بجماهير كان يزدحم بها الميدان.. وسأل "بيل":

– أين "مايك" ,"بريت"؟

فقال "كون":

– سأذهب أنا وآتي بهما..

– تعال بهما إلى هنا..

وظل المهرجان قائما بلا انقطاع من تلك الساعة، على قدم وساق، ليلا ونهارا مدة سبعة أيام.. استمر فيها الرقص والغناء، وكلما مر الوقت زادت الضوضاء والصخب.. وما يأتيه الناس في تلك الأيام السبعة لا يمكن أن يحدث إلا في مهرجان فكل شيء ليست له صبغة واقعية، ويبدو أنه لا يمكن أن يترتب

عليه أي نتائج.. بل أنه يبدو ضربا من الجنون أن يفكر في نتيجة أي شيء أثناء المهرجان، فكأن المنطق أخذ أجازة لمدة أسبوع..

ومن جرب هذا الإحساس سوف يشعر –حتى في لحظات الهدوء– أن هناك باعثا خفيا يناديه كي يصرخ ويقول أي كلام يخطر بباله.وما يقال عن الأقوال، يقال أيضاً عن الأفعال مهما كان نوعها..

وبعد الظهر هو أوان الاحتفال الديني، وهو عبارة عن موكب كبير جدا يجري فيه نقل سان فيرمين من كنيسة إلى كنيسة، ويشترك في هذا الموكب جميع الأعيان والرجال الرسميين في النظام المدني والديني.. ولم نستطع أن نراهم لأن الزحام كان شديدا للغاية.

وكنا جميعا أمام الكنيسة عند ابتداء الموكب، فلما اشتد علينا ضغط الزحام حاولنا أن ندخل الكنيسة مع تمثال القديس ونخبة الأعيان، وواجهتنا رائحة قوية من مجمرات البخور.. ولكنهم لم يسمحوا لـ "بريت" بالدخول لأنها كانت عارية الرأس، فاضطررنا للخروج، وسرنا في الشارع المفضي إلى المدينة.. وإذا بالناس ملتزمين الطوارين كي يتركوا للموكب مكان عندما يستأنف مروره..

ولمح بعض الراقصين في الموكب "بريت" فالتفوا حولها وراحوا يرقصون، وقد وضعوا حول أعناقهم قلائد من الثوم الأبيض، وأدخلوني أنا و"بيل" معهم في حلقة الرقص فرقصنا، وأرادت "بريت" أن ترقص كذلك بيد أنهم منعوها.. إنهم يريدونها تمثالا يحدثون به وهم يرقصون، ولما انتهت الموسيقى نهايتها الصاخبة، اندفعوا بنا إلى حانة قريبة..

وداخل الحانة أجلسوا "بريت" فوق خابية كبيرة للخمر، وكان الظلام تاما داخل الحانة المكتظة بالمنشدين ذوي الأصوات الغليظة، ومن الدنان والخوابي

راحوا يفرعون الخمر، وحاولت أن أضع على البنك نقودا ثمنا للخمر التي سنشربها، ولكن أحدهم تنبه إلى ما فعلت فتناول النقود ووضعها في جيبي.. ولم يكن في خانتنا زقاق من هذا النوع، فقلت له:

– أعرف محلا في الجانب الآخر من الشارع يبيع هذا النوع من الزقاق الجلدية.. سأذهب وآتي باثنين نملأهما خمرا..

وحاولوا أن يمنعوني من الخروج.. وكان إلى جوار "بريت" ثلاثة رجال يعلمونها كيف تشرب من زق جلدي، وكان بجانب "بيل" رجل يعلمه الغناء، يصرخ في أذنه و"بيل" يقلده من غير أن يفهم معنى الغناء البذيء.. والرجل يحفظ الوحدة بالإيقاع على ظهر "بيل" بيده..

وشرحت لهم باللغة الأسبانية أني سأعود.. وفي الشارع رحت أفتش بنظري عن المحل الذي يصنع الزقاق الجلدية، وكان الزحام شديدا على الجانبين ومعظم الحوانيت مقفلة فلم أستطع العثور على ضالتي حيث أتوقع، واضطررت للمشي إلى الكنيسة وأنا أتلفت حولي، ثم لم أجد مفرا من سؤال أحد المارة فأخذني من ذراعي وقادني إلى المحل..

وفي داخل المحل، فعمت أنفي رائحة جلد حديث الدبغ وقار ساخن، والزقاق معلقة من السقف.. فلما عرف مرادي تناول زقا منها ونفخه وأغلقه بإحكام، ثم قفز فوقه قائلا:

– انظر.. إنه محكم..

– أريد كذلك زقا آخر، أكبر من هذا..

فتناول زقا آخر أكبر كثيراً من الزق الأول، يسع خمسة لترات، وصنع به ما صنعه بالأول، ثم سألني:

– وماذا تريد أن تصنع بهما؟.. تبيعهما في بايون؟

– كلا.. بل سأشرب فيهما.. أقصد منهما.

فربت الرجل ظهري بإعجاب شديد، وقال:

– أنت رجل رائع.. ثمانية بيزيتات فقط.. سعر التكلفة..

فأعطيته الثمن، وانصرفت عائدا إلى الحانة، وإذا بها لم تزل سابحة في الظلام كما كانت، بل أشد.. وكذلك الزحام اشتد عن ذي قبل، ولم أستطع أن أرى "بريت" و"بيل" فسألت عنهما، فقيل لي أنهما في الحجرة الداخلية، فكلفت الفتاة التي تبيع النبيذ أن تملأ لي الزقين، ثم دفعت الثمن بعد مشقة لأن أحد الناس –ولم أكن رأيته في حياتي من قبل– حاول بإصرار أن يدفع ثمن اللترات السبعة التي اتسعت لها الباطيتان، ولكن الرجل الذي كان يريد أن يدفع لي ثمن النبيذ أصر أن يسقيني كأسا على حسابه، وأبى أن أرد له التحية، إلا أنه رضى في النهاية أن يأخذ رشفة من الباطية الصغيرة.. ثم أعادها إلي بعد أن أحكم سدادها..

وفي الحجرة الخلفية، كانت "بريت" و"بيل" جالسين فوق دنان الخمر الضخمة، ومن حولهما الراقصون، وقد وضع كل إنسان ذراعه فوق كتف الآخر، والجميع يغنون، أما "مايك" فكان جالسا إلى إحدى الموائد مع أربعة رجال يلبسون القمصان، ويأكلون من وعاء كبير تونة بالزيت والخل والبصل، ويشربون النبيذ، ويمسحون أفواههم بقطع الخبز، ولمحني "مايك" فصاح:

– مرحى يا جاك.. تعال هنا، أريد أن أعرفك بأصدقائي، فنحن كلنا نأكل المشهيات كما ترى..

وقدمني إلى الجالسين حول المائدة، وأرسلوا في طلب شوكة كي استخدمها

في الأكل.. وصاحت "بريت" به:

– كف عن التهام طعامهم يا "مايكل"..

ولما حضرت الشوكة، قلت لمن أعطانيها:

– لا أريد أن آكل عشاءكم..

فألح الرجل قائلا:

– كل.. كل.. لماذا تظن أننا أتينا بها إلى هنا ولم نأكلها في مكان منزو؟.. إنها مجعولة كي يأكل منها الجميع..

وفضضت الباطية الكبيرة، وقدمتها للرجال الجالسين حول المائدة، ودارت الباطية.. كل واحد ارتشف رشفة وأعطاها لمن يليه ومن الشارع أتتنا أصوات الموسيقى إيذانا بأن الموكب قد تحرك..

وسأل "مايك":

– أين وجدوك؟

– لا أدري.. بعض الناس جذبوني من ذراعي قائلين إنكم هنا..

– وأين "كون"؟

فقالت "بريت":

– اختفى.. أخذه بعض الناس لا أدري إلى أين..

– أين هو حقا؟

– لا أدري..

وصاح "بيل":

- وكيف يمكن أن نعرف؟ أظنه مات..!

وصاح "مايك":

- كلا.. إنه لم يمت.. كل ما هناك أنه غاب عن الوجدان بتعاطي العرق.

وسمع أحد الجالسين اسم العرق -وكان "مايك" قد نطقه بالأسبانية- فأخرج من داخل ثيابه زجاجة عرق مما يصنعونه محليا، فقلت:

- كلا.. كلا.. وشكرا لك..

- هيا.. هيا.. لا تتكلف.. لا تحتشم.. اشرب..

ولم أجد مناصا فتناولت رشفة صغيرة أحسست بها تحرق جوفي كله حيثما سرت في بدني، وسألت مرة أخرى:

- بالله أين "كون"؟.

فقال "مايك":

- لست أدري.. ولكن في وسعي أن أسأل..

وسأل بالأسبانية:

- أين الزميل السكران؟

- أتريد أن تراه؟

- لست أنا.. بل هذا السيد..

فمسح الرجل الذي قدم لنا العرق فمه وقال:

- اتبعني..

وفي حجرة خلفية كان روبرت كون نائما بكل هدوء فوق خابيه خمر وقد

غطوه بمعطف قديم، ووضعوا معطفا آخر تحت رأسه، وحول عنقه عقد كبير من الثوم، وقال الرجل:

– دعه ينام.. إنه بخير..

وبعد ساعتين ظهر "كون".. عاد إلينا في الحجرة الأمامية، ولم يزل عقد الثوم حول عنقه، وتصايح الأسبان عندما شاهدوه داخلا، فمسح "كون" عينيه وابتسم قائلا:

– لابد أنني نمت..

– فقالت "بريت":

– لا تقل هذا الكلام..

وصاح "بيل":

– لقد كنت فقط ميتا..

وسأل "كون":

– ألسنا ذاهبين كي نتناول العشاء؟

– أتريد حقا أن تأكل؟

– نعم.. ولم لا؟.. إني جائع..

فقال له "مايك":

– إذن كل هذه الفاكهة التي تحملها حول عنقك.. إنها ثوم من ألذ الأصناف.. كلها يا "روبرت" ولا تخجل..

وتدخلت "بريت" قائلة:

– هيا بنا لنأكل، وأريد أيضاً أن استحم.. هيا بنا..

فقال "بيل":

– فكرة بديعة.. هيا بنا نحتفل بنقل "بريت" إلى الفندق.

وصافحنا مجموعة كبيرة من الناس وانصرفنا، وكان الظلام في الخارج سائدا، وسأل "كون":

– كم الساعة في اعتقادكم؟

فقال "مايك":

– لقد نمت يومين!

– كلا.. كم الساعة حقا؟

– العاشرة..

– لقد أفرطنا في الشراب..

– لعلك تعني كم شربنا نحن.. أما أنت فقد قضيت الوقت نائما.

وفي الطريق إلى الفندق، رأينا الصواريخ وهي تشق سماء الليل، وأما الشوارع الجانبية المفضية إلى الميدان، فكانت مكتظة بالناس.. ومن في وسط الميدان كانوا يرقصون بلا استثناء..

وكان العشاء الذي قدم في الفندق حافلا بالأصناف الممتازة مع تنوع الأطباق وضخامة الكمية، وبعد العشاء خرجنا كلنا إلى المدينة، وأتذكر أنني قررت البقاء ساهراً طوال الليل كي أرى خروج الثيران إلى الساحة من حظائرها في الساعة السادسة من الصباح الباكر، تطارد الناس في هرج ومرج لا نظير لهما.. بيد أني لم أستطع مقاومة النوم إلا إلى الساعة الرابعة، أما الباقون فقد ظلوا ساهرين..

ولما عدت إلى الفندق وجدت حجرتي مغلقة، ولم أجد المفتاح فصعدت إلى حجرة "كون"، وكانت أصوات المهرجان الصاخب تصل إلى سمعي، ولكني كنت في حالة إعياء تام والنوم مستولي علي تماما، فلم تفلح محاولاتي في البقاء يقظا.. واستغرقت في النوم..

ولما استيقظت كان ذلك على سماعي صوت إطلاق الصاروخ المدوي إيذانا بانطلاق الثيران من حظائرها إلى ساحة المصارعة، فوضعت على كتفي معطفا من ثياب "كون" وخرجت إلى الشرفة وكان الشارع من تحتي خالياً تماما، وكنت قد استيقظت وعندي إحساس بأني تأخرت كثيرا..

وفجأة امتلأ الميدان بأناس يجرون بكل قواهم، متجهين جميعا إلى ساحة المصارعة، وأعقب ذلك فترة خلاء ليس فيها أحد، وأخيراً ظهرت الثيران تجري، وهي تهز رؤوسها في أثر الناس.

وبعد أن اختفوا عن النظر تصاعد من صوب ساحة المصارعة هدير هائل استمر طويلا إلى أن ارتفع صاروخ إيذانا بأن الثيران وصلت أخيرا إلى الساحة مخترقة الناس المحتشدين عند بابها الضيق..

وعدت إلى الحجرة، ودخلت الفراش.. فقد كنت واقفا في الشرفة حافي القدمين وأنا لا أدري.. وما أن دخلت الفراش حتى نمت..

وأيقظني "كون" عندما عاد، وشرع يخلع ثيابه، وأغلق النافذة لأن الناس الذين في الشرفة المقابلة للفندق كانوا ينظرون إلينا..

– هل رأيت المهرجان؟

– أجل.. كلنا كنا هناك..

– وهل أصيب أحد؟..

- اصطدم أحد الثيران بالناس في الساحة وأصيب ثمانية..

- وهل راق المنظر لـ "بريت"؟

- أعتقد ذلك..

- أتمنى لو أنني كنت هناك..

- لم نكن ندري أين أنت.. وبحثنا عنك في حجرتك، ولكنا وجدناها مقفلة فرجعنا يائسين من العثور عليك..

- وأين سهرتم؟

- رقصنا في ناد ليلى..

- أما أنا فشعرت بالنوم..

- رباه.. أنا أشعر بحاجة شديدة للنوم.. ألا تتوقف هذه الضجة؟

- تستمر إلى أن ينتهي الأسبوع..

وفتح "بيل" الباب، وأطل برأسه وقال:

- أين كنت يا "جاك"؟..

- رأيت مرور الموكب وأنا في الشرفة.. ما رأيك أنت؟

- شيء بديع جدا..

- وإلى أين الآن؟

- إلى النوم طبعا..

الفصل الرابع عشر

لم يستيقظ أحد قبل الظهر، وأكلنا على موائد، أعدت لنا تحت البواكي المطلة على الميدان لازدحام قاعة المائدة بالنزلاء، وبعد الغداء، توجهنا إلى مقهى ايرونا فإذا بها قد غصت بالوافدين، وكلما اقترب موعد المصارعة ازداد ازدحام المقهى وزادت الضوضاء..

وكنت قد حجزت ست تذاكر لجميع الحفلات.. ثلاث منها في الصف الأول، والثلاث الأخرى في الوسط ولها ظهور مريحة، واقترح "مايك" أن تجلس "بريت" في المرة الأولى في الوسط، واختار "كون" أن يجلس معهما.. أما أنا و"بيل" فسنجلس في الصف الأول، فأعطيت التذكرة السادسة للساقي كي يبيعها، ووجه "بيل" بعض النصائح لـ "كون" حتى لا ينظر إلى الخيل عندما تنطحها الثيران، فـ "بيل" شاهد مصارعة للثيران في عام مضى، فقال "كون":

– أنا لا أخشى أن أواجه المناظر، بل كل خوفي من السأم..

– أتعتقد هذا حقا؟

وقلت لـ "بريت":

– لا تنظري إلى الخيل بعد أن يصيبها الثور..

– إني عصبية قليلا بالفعل، وأخشى ألا أستطيع الصمود.

– لا تخافي.. فليس هناك من صعوبة إلا في لحظات قتل الحصان، وهي لحظات خاطفة تمر سراعا، فلا تلقي إليه بالاً..

وقال "مايك":

- لا تقلق عليها.. فسوف أرعاها.

وقلت على الأثر:

- سأذهب الآن إلى الفندق لإحضار المنظار المقرب ابق أنت هنا يا "بيل"..

- سآتي معك..

واخترقنا الميدان سائرين تحت البواكي تجنبا لحرارة الشمس، وقال لي "بيل":

- الفتى "كون" يكاد يقتلني من الغيظ.. أن يهوديته تسبب له مركب عظمة، بحيث يعتقد أن الانفعال الوحيد الجدير به هو الملل والسأم، حتى وهو يشاهد مصارعة..

- سنراقبه بالمنظار المقرب لنرى هل يتأثر بالمنظر المثير أم لا؟

- ليذهب إلى الجحيم..

- إنه معظم الوقت يعيش في جحيم فعلا..

- أريد له أن يبقى هناك على الدوام..

وفي الفندق، قابلت "مونتويا" على السلم، فقال لي:

- أتريد أنت وصاحبك أن تقابلا "بيدرو روميرو"؟

فقال "بيل":

- منظره منظر مصارع حقيقي.. وسنرى كيف يبدو في الميدان؟

ووجدنا الزق الكبير في حجرتي، فأخذناه وأخذنا كذلك المنظار المقرب، وأغلقنا الباب ونزلنا..وكانت المصارعة في ذلك اليوم بديعة.. وكنت أنا و"بيل" في حالة تحمس شديد لـ "بيدرو روميرو"، وكان "مونتويا" جالسا على مسافة نحو عشرة مقاعد من مكاننا، فبعد أن قتل "روميرو" ثورة الأول التفت "مونتويا"

نحوي وهز رأسه راضيا بما معناه أن هذا الفتى مصارع من النوع الحقيقي الأصيل.. ولم تكن الملاعب قد عرفت مصارعا أصيلا منذ زمن طويل، وتلاه في الملعب اثنان، أحدهما متوسط والآخر أقل من المتوسط، ولكن لا سبيل إلى مقارنتها بـ "روميرو" مع ثيرانه.

وكنت في أثناء المصارعة قد عنيت بالنظر إلى "مايك" و"بريت" و"كون" فلم أجد على وجه "بريت" ما يدل على الانزعاج، وثلاثتهم منهمكين بالنظر أمامهم، وقال "بيل":

- أعطني المنظار لحظة..

وبعد أن نظر قليلا إلى جهتهم، سألته:

- هل رأيت على وجه "كون" إمارات السأم؟

- هذا المدعي..

وفي خارج الساحة، بعد انتهاء المصارعة، لم نستطع أن نتحرك من شدة الزحام، واضطررنا أن نترك للجمهور مهمة دفعنا إلى الاتجاه الذي يسير فيه، وأصوات الطبول تملأ الجو. وسرعان ما تكونت حلقات من الراقصين، لم نستطع بسبب الزحام أن نرى منها سوى اهتزاز الأكتاف..

وأخيراً استطعنا أن نتخلص من الزحام ونشق طريقنا إلى المقهى، وأبدى الساقي همة في إحضار مقاعد لنا رغم شدة الضغط، وطلبنا الأبسنت، وجلسنا نراقب المارة والراقصين.

وسأل "بيل":

- لماذا ترقص كل جماعة رقصا مختلفا؟

- لا عليك من هذا.. فهو على كل حال رقص جميل..

وهتف "مايك":

- إن روميرو هذا رائع حقا..

وقالت "بريت":

- أليس جميلا؟ ويا لسرواله الأخضر..

وغمز "مايك" بعينه قائلا:

- "بريت" لم تحول عينيها عنه طوال الوقت..

- تعبت عيناي من التحديق.. لابد أن استعير منظارك غدا.

- والخيل التي قتلت؟

- لم أستطع تحاشي النظر إليها..

فقال "مايك":

- هذه فتاة عجيبة.. لم تحول عينيها عن تلك الخيول.

- كان ذلك رغم إرادتي.. ولكني لم أشعر بتعب أو غثيان.

وعندئذ قال "مايك":

- ولكن الذي تأثر حقا هو "كون"..

- لقد أتعبني حقا الحصان الأول..

- أتقول أتبعك؟ ما هذا التواضع.. بل قل كاد يغمى عليك.

وانتهز "بيل" الفرصة فقال:

- أنت إذن لم تشعر بالملل؟

فضحك "كون" بخجل، وقال:

– أرجو أن تغفر لي تلك الكلمة..

– وما قيمة الكلمة؟ المهم أنك لم تشعر بسأم..

– قلت لك أني آسف لصدور تلك الكلمة.. أظن هذا يكفي.

وقال "مايك" أيضاً:

– وقد علق على ثبات "بريت" بأنها سادية.. وهي ليست سادية على الإطلاق، وإنما هي في الحقيقة فتاة سوية قوية لطيفة.

فسألت "بريت" مازحا:

– هل أنت سادية حقا يا "بريت"؟

– أرجو ألا أكون..

وتدخل "بيل" فحول اهتمام "مايك" إلى موضوع آخر لينقذ "كون"، وجاء الساقي بالابسنت، وبعد حديث عن الثيران قالت "بريت":

– في المرة القادمة أريد أن أجلس في الصف الأول..

فغمز "مايك" بعينه وقال:

– إنها تريد أن ترى المصارعين الوسيمين عن قرب..

فقالت:

– إن هذا الفتى "روميرو" لا يعدو أن يكون طفلا..

فقلت:

– لما رأيته في حجرته بالفندق، آمنت بأنه أجمل شاب وقعت عيني عليه

حتى الآن.. –كم تظن أنه يبلغ من العمر؟

– ١٩ عاما أو ٢٠ عاما.

وكانت المصارعة في اليوم الثاني أفضل منها في اليوم الأول.. وقد جلست "بريت" في الصف الأول –كما طلبت– بيني وبين "مايك" وجلس "بيل" بجوار "كون" في الصف الأوسط..

وكان "روميرو" هو لباب المشاهد كلها.. ولا أعتقد أن "بريت" رأت أي مصارع آخر في ذلك اليوم، لشدة افتتانها به.. والحق أن الكل كانوا مفتونين به.. فحركاته في اللعب بالثور، كانت آية في الخفة والبراعة، مع اقترابه من الثور اقترابا مثيرا للخوف عند الجمهور، وهو محتفظ بكل هدوئه مما أثار إعجاب الناس وحماستهم.. إن هذا الفتى موهوب، تعلم من فطرته العبقرية ما لا يتعلمه سواه بالجهد والحيلة..

وقال "مايك" بكل بساطة:

– أعتقد أنها عشقت هذا الفتى المصارع..

– هذا لا يدهشني!

– إذن أرجوك يا "جاك" ألا تحدثها بالمزيد عنه.. وإن كان ولابد، فحسبك أن تقول لها أنه يضرب أمه العجوز..

فقالت "بريت":

– أو حدثني عن إدمانه للخمر..

فقال "مايك":

– هذا صحيح.. إنهم يسكرون ليل نهار ويضربون أمهاتهم.

وفي اليوم الثالث، لم يظهر "روميرو" بل قام بالمصارعة رجال من الصف الثالث مع ثيران من النوع المعروف باسم مويرا..وفي اليوم الرابع، لم تقم مصارعات.. ولكن المهرجان استمر على حاله من الصخب ليلا ونهارا..

وفي الصباح كانت الأمطار تهطل، وقد تجمعت الغيوم فوق الجبال قادمة من البحر بحيث لم يعد في الإمكان أن ترى قمم الجبال من خلالها.. فكانت الهضبة تبدو لعين الرائي كابية واجمة، وتغير منظر الأشجار والبيوت.. فخرجت إلى ظاهر المدينة لأرى المنظر العام في الجو، فوجدت الطقس الرديء زاحفا على المدينة وضواحيها من جهة البحر..

وكانت الرايات الخفاقة بالأمس في الميدان تتدلى اليوم مبللة بماء المطر، والناس يسيرون بحذر شديد تحت البواكي كي يتجنبوا المطر الذي صنع في وسط الميدان بحيرات صغيرة.. وبدت الشوارع مقفرة، بيد أن هذا لم يوقف بهجة المهرجان.. وكل ما هناك أن الضجة انتقلت إلى الأماكن المسقوفة كالحانات..

بل إن المقاعد المسقوفة في ساحة المصارعة، اكتظت بالناس الذين جلسوا يرقبون الرقص يقوم به راقصون من كافة مقاطعات أسبانيا تحت المطر المنهمر في ملابسهم الإقليمية الملونة.. ثم كانت أفواج الراقصين تخرج بعد ذلك إلى الشوارع كي تطوف بالحانات، ويشرب أفرادها مع الرواد، ويخلعون ستراتهم كي تجف..وجلست قليلا في المقهى، ثم غادرت جوها المزدحم إلى الفندق كي أحلق ذقني استعدادا للعشاء، وكنت أحلق ذقني في حجرتي عندما سمعت طرقا خفيفا على باب حجرتي فصحت:

– أدخل..

فدخل "مونتويا" وقال:

– كيف أنت؟

– بخير..

– لا ثيران اليوم..

– لا ثيران.. لا شيء سوى المطر..

– وأين أصدقاؤك؟

– هناك في مقهى أيرونا..

فابتسم "مونتويا" ابتسامته المخجلة، وقال:

– اسمع.. هل تعرف السفير الأمريكي؟

– طبعا أعرفه.. الجميع يعرفون السفير الأمريكي..

– أنه الآن في المدينة..

– نعم.. الجميع رأوه هنا هو وعائلته..

– أنا أيضا رأيتهم..

ولم يزد على ذلك حرفا.. فمضيت في حلاقة ذقني وقلت:

– اجلس.. ودعني أطلب لك شرابا..

– كلا.. فلابد أن أذهب..

وفرغت من الحلاقة، وغسلت وجهي بالماء البارد و"مونتويا" لم يزل واقفا ينظر نظرته التي تنطق بالحرج، ثم قال:

– اسمع.. لقد تلقيت الآن رسالة منهم حيث يقيمون في "جراند أوتيل" أنهم يريدون أن يذهب "بيدرو روميرو" و"لالاندا" لتناول القهوة بعد العشاء معهم هناك..

– وماذا في ذلك؟

– "لا لاند" مسافر.. إنه طوال اليوم في سان سباستيان، ولست أظن أنه يعود الليلة من هناك..

ووقف "مونتويا" صامتا، وقد بدا عليه الحرج، وكان واضحا أنه يريد أن يسمع مني كلمة تريحه، فقلت:

– لا تبلغ الرسالة إلى "روميرو" بمفرده..

– هل هذا رأيك؟

– بالتأكيد..

فظهر السرور على "مونتويا" وقال:

– أحببت أن أستطلع رأيك لأنك أمريكي.

– هذا ما أفعله لو أني كنت في مكانك..

– اسمع.. أن الناس بتهافتهم على فتى مثل "روميرو" يفسدونه بالتملق والإطراء، ويبهره الجو الذي يعيش فيه الأجانب وما هو إلا عالم واحد في جو الجراند أوتيل حتى يقضي عليه..

– مثلما حدث لـ "الجابينو" من قبل..

– بالضبط..

– إنهم حثالة البشر.. وتوجد الآن امرأة أمريكية مليونيرة هنا في المدينة تجمع مصارعي الثيران، كما يجمع الهواة طوابع البريد مثلا..

– أعرف هذا، ومثيلاتها لا يبحثن إلا عن الشباب منهم..

– نعم، لأن القدامى منهم تدركهم البدانة..

– أو الجنون مثل "جالو"..

– الحل سهل.. لا تبلغ "روميرو" الرسالة..

– أنه فتى لطيف للغاية.. وينبغي أن يظل في وسط قومه، ولا يخالط أولئك الناس المفسدين..

– ألا تريد حقا أن تشرب شيئاً؟

– كلا.. يجب أن أذهب الآن..

وخرج.. ونزلت أنا أيضا وسرت على قدمي للنزهة تحت البواكي لأن المطر كان لا يزال ينهمر بشدة، وألقيت بنظري داخل المقهى بحثا عن العصابة –وقد صرنا نطلق على أنفسنا اسم العصابة– فلم أجدهم، فدرت حول الميدان مرة أخرى، وعدت إلى الفندق، فوجدتهم يتناولون العشاء في القاعة التي بالطابق الأسفل، وقد سبقوني في الشراب أشواطا كثيرة بحيث لا أطمع أن ألحق بهم.. وكانت هواية "بيل" تلك الليلة أن يشتري طلاء لحذاء "مايك".. فكل ماسحي الأحذية يفتحون الباب واحدا تلو الآخر، فيأمرهم أن يمسحوا حذاء "مايك" وقال لي "مايك":

– هذه المرة الحادية عشرة التي يمسح فيها حذائي.. لا شك في أن "بيل" أحمق كبير..

ولابد أن ماسحي الأحذية نشروا الخبر، ففتح الباب ودخل أحدهم وقال لـ "بيل" لأنه رأى زميلا له يمسح حذاء "مايك":

– هل أنت الذي يريد مسح حذائه؟

– لست أنا، بل حذاء هذا السنيور..

وأشار إلى "مايك".. ولم يكذب الغلام الخبر، وانقض على الفردة الأخرى وهي لامعة أشد اللمعان، وراح يلمعها بجد واجتهاد..

وكنت أشرب نبيذا أحمر، ومتخلفا عنهم جدا في الشرب، ولذا لم أهضم حكاية التلميع المستمر هذه.. وتلفت حولي فرأيت على المائدة المجاورة "بيدرو روميرو"، فنهض واقفا عندما رآني، وطلب مني أن آتي ليعرفني بصديق له.. وكانت مائدته ملاصقة لمائدتنا تقريبا، فانتقلت إليها وتعرفت بالصديق وهو ناقد فني للمصارعة من مدريد، قصير القامة طويل الوجه.

وقلت لـ "روميرو" كيف أعجبتني مهارته في المصارعة، ففرح بهذا الإطراء فرحا عظيما.. وكنا نتحدث بالأسبانية لأن الناقد لا يعرف إلا قليلا من الفرنسية، ومددت يدي إلى مائدتنا لآتي بزجاجة النبيذ.. ولكن الناقد جذب يدي، وضحك "روميرو" قائلا بلغة انجليزية سليمة:

- اشرب معنا هنا..

وحرص أثناء الكلام بعد ذلك على استخدام بعض كلمات انجليزية، وكان ينتهز الفرصة كي يسألني عن بعض الكلمات التي يخامره شك في سلامة استعمالها، وأخبرني أنه تعلم تلك اللغة أثناء إقامته في جبل طارق، وأنه ولد في روندا وهي لا تبعد كثيرا عن تلك الصخرة البريطانية، وقال لي أيضاً:

- إني سعيد جدا لرضاك عن عملي، ولكنك لم تر أحسنه بعد.. وغدا - إذا أسعدني الحظ بثور جيد- قد أريك شيئا يعجبك.

وابتسم ابتسامة خجلى، كأنه يخشى أن نظنه -أنا والناقد- ميالا للمباهاة والادعاء.. وقال الناقد:

- إني متلهف على أن أرى ما يقنعني..

فالتفت إلى "روميرو" وقال بكل بساطة:

– إنه غير راض عن عملي حتى الآن..

وقال الناقد موضحا:

– بل يعجبني كثيرا.. بيد أني أرى أن عمله حتى الآن بعيد عن الكمال المنشود..

فقال "روميرو":

– انتظر إلى الغد عسى أن يجيئنا ثور ممتاز، وسترى..

وفي هذه اللحظة تدخلت "بريت" قائلة:

– ماذا جرى يا "جاك"؟ لقد هجرتنا..

– مؤقتا فقط، لأننا نتكلم عن الثيران..

– في وسعك أن تقدم لنا أصدقاءك.

قالت هذا وهي لا تكف عن النظر إلى "روميرو"، فسألت الاثنين:

– هل لكما في تناول القهوة معنا؟

فنهض الاثنان، وكان وجه "روميرو" شديد السمرة، وفي غاية التهذيب، وبعد أن تم التقديم اتضح أن المائدة لا تتسع لنا جميعا.. فقررنا الانتقال إلى مائدة كبيرة بجوار الحائط، وطلب "مايك" زجاجة من شراب الفوندادور وأقداحا للجميع، وكان "مايك" ,"بيل" في منتهى السكر، وصدرت عنهما أقوال كثيرة لا تصدر إلا عن السكارى، وجعل "بيل" يلح علي أن أقول لـ "روميرو" أنه يشعر بالخزي من مهنة الكتابة، وأما "روميرو" فكان جالسا بجوار "بريت" صاغيا لما تقوله باهتمام شديد، وانطلق "مايك" يقول:

– هيا يا "جاك".. أخبره أن "بريت" تتحرق شوقا إلى رؤيته، وهو يرتدي تلك

السراويل الخضراء.. وتريد أن تعرف أيضاً كيف يستطيع لبسها وهي بهذا الضيق..!

وفي هذه اللحظة أقبل "مونتويا" وشرع يبتسم لي، ولكنه اقتضب الابتسامة عندما رأى "روميرو" بجوار "بريت" وفي يده قدح الكونياك و"بريت" عارية الكتفين، وغادر القاعة.

ووقف "مايك" يقترح نخبا، وبدأ يقول:

– لنشرب نخب..

فقاطعته قائلا:

– "روميرو"..

ووقف الجميع وشربوا النخب، وكان "روميرو" جادا جدا.. وكان تدخلي لأن "مايك" كان بلا شك يريد أن يشرب نخبا آخر فيه إساءة للفتى، وأنقذ الموقف أن "روميرو" صافحنا مستأذنا هو والناقد ثم انصرفا، وقالت "بريت" بحماسة وحرارة:

– رباه.. ما أجمله..

ولكن "مايك" قطع الكلام، قائلا بلا مقدمات:

– أريد أن أسوي الآن مسألة "كون".. أتعتقد يا "كون" أن "بريت" تريد أن تراك هنا معنا؟ هل تعتقد أنك عضو من العصابة؟ أنا لست أديبا مثلكم أيها الكتاب الأفاضل، ولكني على الأقل أعرف متى انسحب عندما أرى الجو غير مناسب لبقائي، فلماذا لا تريد أن تفهم أن بقاءك غير مرغوب فيه؟ لماذا لا تذهب إلى كنيس لليهود يا "كون"؟ لماذا لا تفارقنا؟

وتدخلت قائلا:

– هيا بنا نذهب إلى مقهى أيرونا..

ومضينا إلى المقهى، وأنا أجر "مايك" من ذراعه جرا.. وبقى الآخرون في الفندق، وكان المطر قد انقطع وأخذت الفرقة الموسيقية العسكرية تعزف، والألعاب النارية تنطلق وسط التهليل والهتاف.

الفصل الخامس عشر

في داخل المقهى كان الزحام الصاخب على أشده، ولم نستطع الحصول على مائدة لأن الضوضاء كانت تغطي على كل شيء.. فقال "بيل":

– هيا بنا إلى مكان آخر..

وفي خارج مقهى "بازيو" تحت البواكي، رأينا بعض الأمريكيين والانجليز القادمين من بياريتز في ثياب الرياضة منتشرين فوق الموائد، وبعضهن يحدقن في الناس بالمناظير المقربة.. وكنا قد تعرفنا في اليوم السابق على فتاة قادمة من بياريتز من أصحاب "بيل" وهي مقيمة مع فتاة أخرى في جراند أوتيل، ولما كانت الفتاة الأخرى قد اعتكفت بسبب صداع شديد، فقد أتت معنا لقضاء السهرة. وقال "مايك":

– هاكم حانة لا بأس بها..

وهذه الحانة هي بار ميلانو، وهي بار صغير تستطيع أن تتناول فيه الطعام.. وبالحجرة الخلفية منه مكان للرقص، وجلسنا كلنا إلى مائدة واحدة، وطلبنا زجاجة فوندادور، ولم يكن البار غاصا بالناس، والهدوء كان سائدا فقال "بيل":

– هذا مكان سخيف..

– الوقت لم يزل مبكرا..

– إذن هيا بنا نأخذ الزجاجة وننصرف، لأني لا أريد أن أجلس هنا .

– إذن هيا بنا نذهب لنتسلى بمشاهدة الانجليز، فمشاهدتهم تسليني كثيرا..

– إنهم من البشاعة بمكان.. من أين أتى كل هؤلاء؟

– من بياريتز.. أتوا ليروا اليوم الختامي للمهرجان المشهور.

– عليهم اللعنة..

والتفت "مايك" إلى صاحبة "بيل" وقال:

– أنت فتاة جميلة بدرجة غير عادية.. متى أتيت؟ وأين كانت عيناي فلم أرك إلا الآن؟ تعالى معنا، أنا و"بيل"، لنشاغب الانجليز.. نحن الثلاثة فقط، فلا شأن لهم بهذا المهرجان يفسدونه بسحنهم، وأرجو ألا تكوني انجليزية.. أما أنا فاسكوتلندي أكره الانجليز كل الكراهية.. هيا معنا ننغص عليهم سرورهم..

ومن نافذة بارميلانو رأينا ثلاثتهم، وقد تشابكت أذرعهم متجهين إلى مقهى "أيرونا"..

وقالت "بريت":

– أنا سأجلس هنا..

فقال "كون":

– وسأبقى أنا معك..

– إياك.. بحق السماء لا تجلس معي.. اذهب إلى أي مكان تشاء.. ألا ترى أني و"جاك" نريد أن نتحدث حديثا خاصا؟

– لم أدرك هذا.. وخطر لي أن أجلس هنا قليلا لأني سكران.

– يا له من سبب لا يبرر إطلاقا لك الجلوس مع أي إنسان.. إن كنت سكرانا حقا، فالمكان الطبيعي لك هو الفراش.. اذهب إلى فراشك.

فانصرف على الفور، وسألتني "بريت":

– أتراني كنت عنيفة بما فيه الكفاية؟ رباه لقد أعياني أمره ووجوده يهبط

بحالتي المعنوية، في رحلة للمرح..

– لقد كان سلوكه سيئاً جدا..

– إلى أقصى حد ممكن.. وكانت لديه فرص كثيرة كي يسلك سلوكا مهذبا.

– لعله الآن كامن لنا وراء هذا الباب..

– أنه جدير أن يفعل هذا.. وأنا من هذه الناحية مقدرة لشعوره، فهو لا يريد أن يصدق أن ما بيننا لا يعني شيئا..

– هذا هو الإشكال فعلاً..

– ما من أحد في كل من عرفتهم يمكن أن يتصرف كتصرفه.. لقد سئمت القصة كلها، فهذا "مايك" زاد الأمر سوءا..

– لا تنسى أن الموقف كان شديد الوطأة على "مايك"..

– أعلم هذا، ولكن هذا لا يبرر أن يكون سخيفا إلى هذا الحد..

– كل إنسان لابد أن يسيء التصرف في بعض الظروف..

– إنك ما كنت لتسيء التصرف..

– بل كنت أصل في "الجليطة" إلى ما لم يصل إليه "كون".

– لا يا حبيبي.. دعنا من هذا الهراء..

– وهو كذلك.. تكلمي في أي موضوع يروق لك..

– لا تكن قاسيا يا "جاك"، فأنت الشخص الوحيد الباقي لي. وأنا الليلة في حالة نفسية سيئة للغاية..

– أنا لست الشخص الوحيد.. هناك "مايك".

- أجل "مايك" حقا.. ألم يكن رائعا؟

- لا تنسى أن الموقف كان صعبا للغاية بالنسبة لـ "مايك"، وهو يرى "كون" يتبعك مثل ظلك، وعينه لا تتحول عنك..

- أتظنني غافلة عن هذا؟ وهل كان الموقف سهلا علي ؟ وكانت "بريت" في حالة عصبية لم أعهدها فيها من قبل.. فظلت تنظر إلى بعيد، وتتحاشى أن تتلاقى عيوننا.. وكأن الجدار الذي أمامنا هو كل ما تهتم به.. فقلت لها:

- أتحبين أن نمشي قليلا؟

- نعم، هيا بنا..

وهممت أن أضع السداد في فوهة الزجاجة، فقالت:

- أعطني كأسا أخرى.. فأعصابي في أسوأ حالة..

وعندما غادرنا الحانة، لمحت "كون" يبرز من تحت البواكي، وضغطت "بريت" على ذراعي، وقالت:

- كان متربصا لنا هناك..

- إنه لا يستطيع البعد عنك..!

- مسكين..

وسرنا وقد تأبطت ذراعي -بعيدا عن الزحام- في شارع مظلم إلى التحصينات الخارجية للمدينة، ومررنا في طريقنا بالحانات.. يفيض الضوء ناصعا من أبوابها ونوافذها مع أنغام الموسيقى، فقلت لها:

- أتحبين أن ندخل؟

– كلا..

فاخترقنا العشب إلى التحصينات التي يحيط بها سور عال، وبدت لنا المدينة جاثمة تحت أقدامنا في ضوء القمر، وقلت:

– لا تكتئبي يا "بريت"..

– بل أشعر كأنني في جحيم.. لا تتكلم، أرجوك..

ولزمنا الصمت برهة، ونحن نتأمل المنظر، ونسرح بأبصارنا بين القمم التي تتراءى منها أضواء الحصن، وبنيان الكاتدرائية الضخم المظلم، وعن يسارنا ينساب النهر ينم عنه خرير الماء.. ثم لاحت على البعد أنوار سيارة تصعد الجبل، وجلسنا في ظل شجرة، ونظرات "بريت" لم تزل شاخصة إلى بعيدة، وفجأة عرتها هزة، وقالت:

– الجو بارد..

– أتحبين أن نعود؟

– مخترقين البستان..

وكان البستان أشد ظلمة بسبب وجود الأشجار، وقالت لي:

– ألم تزل مقيما على حبي؟

– بلى..

– ولكني ضائعة أنا الآن في حالة افتتان جنوني بهذا الفتى "روميرو" وأخالني عاشقة له!

– لو كنت في مكانك لما أقدمت على ذلك..

– وما العمل ولا حيلة لي في الأمر؟ إن غرامه يمزق أحشائي.

– حذار يا "بريت"..

– لا حيلة لي في هذا.. بل إني على الدوام لا حيلة لي أمام رغباتي..

– ينبغي أن تضعي حدا لهذا..

– ولكن كيف؟ أنا لا أستطيع أن أقاوم رغباتي.. تحسس يدي..

وكانت يدها ترتعد، وقالت:

– إني أرتعد بهذه الصورة بكياني كله، داخلا وخارجا..

– يجب –بأي ثمن– أن تضعي حدا للمسألة كي لا تستسلمي.

– ألم أقل لك إني ضائعة؟ ألا تفهم ما هي الفتاة أو المرأة الضائعة؟..

– كلا..

– إنها المرأة التي لم يعد في مقدورها أن تقف في وجه أي رغبة تسيطر عليها، فلابد لها أن تظفر بما تشتهيه مهما كان اقتناعها بأنه لا يليق بها، وهكذا أنا الآن.

– ولكن لا ينبغي يا "بريت"..

– وكيف أصنع و"كون" القذر لا يكاد يفارقني، و"مايك" حالته دائما كما تعلم، وليس في وسعي أن أظل طوال الوقت سكرانة..

– كلا بالطبع..

– أتوسل إليك يا حبيبي أن تقف إلى جواري إلى أن تمر هذه العاصفة..

– طبعا.. طبعا..

– أنا لا أقول أن هذا الأمر سليم لائق.. فالله وحده يعلم أني لم أشعر بالاحتقار لنفسي مثلما أشعر به الآن..

– ماذا تريدين مني أن أصنع بالضبط؟

فقالت "بريت" بكل تصميم وضراعة:

– شيء واحد لم يعد لي عنه محيص.. هيا بنا إليه..

وسرنا صامتين فوق الحصباء التي تغطي ممرات البستان، تحت الأشجار، ثم اخترقنا بوابة المدخل إلى الشارع المفضي إلى المدينة، بحثا عن "بدرو روميرو"..

وكان "روميرو" جالسا في المقهى مع عدد من مصارعي الثيران ونقاد تلك الرياضة، وهم يدخنون السجائر.. فلما دخلنا رفعوا وجوههم إلينا، وابتسم "روميرو" وانحنى، وجلسنا إلى مائدة في وسط القاعة، وقالت "بريت" بلهفة:

– أطلب إليه أن يأتي ويشرب معنا كأسا..

– اصبري.. سيأتي هو من تلقاء نفسه..

– لا أستطيع أن أرفع عيني لأملأها منه.. كل ما في يرتعد.

– إن شكله لطيف حقا..

– ولكني أشعر وأنا أنظر إليه أنني حقيرة.. ألا ما أضعف المرأة، وما أقسى ما تعانيه أحيانا!

ونظرت عبر القاعة إلى مائدته، وابتسم "روميرو" وقال شيئا لمن معه، ثم نهض واقفا وأقبل نحو مائدتنا، فوقفت وقدمت إليه يدي وقلت له:

– هلا تناولت معنا كأسا؟

واستأذن "بريت" قبل أن يجلس بنظرة، ثم جلس والسيجار لم يزل في فمه، والحق أن شكله يوافقه السيجار، وسألته:

– هل تحب السيجار؟..

- أنا دائما أدخن السيجار..

وكان يدخنه طبعا لأن ذلك يزيد من مظهر رجولته، ويجعله يبدو أكبر سنا من حقيقته، ولاحظت أن عينيه على "بريت"، وكأنه يحس أن هناك شيئا ما بينهما، ولابد أن إحساسه هذا انقلب إلى يقين عندما أعطته "بريت" يدها وسألته:

- هل ستصارع غدا؟

-نعم، فقد جرح "ألجابينو" اليوم في مدريد..

وفرجت "بريت" أصابع كفه، فقال لها بالإنجليزية:

- هل تقرأين الكف؟

- أحيانا.. هل لديك مانع أن أقرأ لك كفك؟

- إطلاقا.. أخبريني أني سأعيش إلى الأبد وسأغدو مليونيرا!

وضحك، ولاحظت أن كفه رشيق ناعم..

وقالت "بريت":

- أرى في يدك ألوفا من الثيران..

وكانت العصبية قد فارقتها تماما، وهي تقلب كفه وتتحسسها، وقال "روميرو" ضاحكا:

- لا بأس بهذا.. فكل ثور ثمنه ألف بيزيتا، وماذا أيضاً؟

- يدك من الأيادي المحظوظة وستعيش طويلا..

فقال لها بالانجليزية:

- أنا أعتقد هذا..

– إنك تحسن الكلام بالانجليزية..

– إلى حد ما، ولكني لا أدع أحدا يعرف هذا عني..

وقالت "بريت" بدهشة:

– ولكن لماذا؟

– لأن أثر ذيوع هذا عني ليس في صالحي.. الناس ينتظرون من مصارع الثيران ألا يعرف إلا الأسبانية..

– أنا أحب طراز قبعتك..

– سأقدم إليك قبعة مثلها..

– وهو كذلك.. إياك أن تنسى..

– الليلة..

ونهضت فنهض "روميرو" أيضاً، ولكني قلت له:

– بل اجلس أنت.. سأعود بعد قليل..

ونظر إلي نظرة استفسار، فأغضيت ببصري وانصرفت.. ولما عدت بعد نصف ساعة لم أجد لهما أثرا في المقهى، ووجدت الساقي ينظف المائدة..وأمام بار ميلانو التقيت بـ "مايك" و"بيل" وصديقته "أدنا" فقالت:

– لقد طردونا..

وقال "مايك":

– هناك بالداخل شخص لا يحبني..

وعادت "أدنا" تقول:

– لقد منعتهما من الاشتباك في أربع مشاجرات..

وصاح "بيل":

– هيا ادخلي يا "أدنا" وراقصي "مايك"..

– ولكن هذا عبث لن نجني منه إلا مشاجرة أخرى..

– يا لهم من حمقى هؤلاء القادمون من بياريتز..

فسألت مايك:

– هل تعرفهم يا "مايك"؟

– كلا، ولكنهم يقولون أنهم يعرفونني.

– هيا بنا إلى المقهى السويسري..

وما إن دخلنا إلى المقهى السويسري وجلسنا وطلبنا زجاجة من الفوندادور حتى أقبل "روبرت كون" وسألني:

– أين "بريت"؟

– لست أدري..

– ولكنها كانت معك..

– لابد أنها أوت إلى فراشها..

– إنها ليست في حجرتها..

– لا أدري أين هي..

– أخبرني أين هي؟

– اجلس واهدأ، أنا لا أدري أين هي..

– بل أنت تعلم أين هي..

– وحتى لو كنت أعلم لما أخبرتك..

وتدخل "مايك" في الحوار قائلا:

– اذهب إلى الجحيم يا "كون"، لقد ذهبت "بريت" مع مصارع الثيران وهما الآن في شهر العسل..

– اخرس..

– اذهب إلى الجحيم..

– أهي حقا معه؟ تكلم يا "جاك" وإلا أرغمتك على الكلام..

– اذهب إلى الجحيم..

فهجم علي وهو يسبني أبذأ السباب، ولم أدر بعدها إلا وأنا ملقى على الأرض.. ولما حاولت أن أنهض لأقاتله ضربني مرة أخرى فألقى بي تحت المائدة، ولم أستطع النهوض، وحاول "مايك" أن يقيمني فعجز، وصب بعضهم ماء على رأسي، ثم رفعوني فوق كرسي، ووجدت "مايك" يدلك لي وجهي، فقلت:

– وأين كنت؟

فقالت "أدنا":

– لقد صرع "مايك" أيضاً..

– لا تبالغي.. إنه لم يصرعني بل ألقاني أرضا..

وكان قد اجتمع خلق كثير وسقاة وغلمان ففرقهم "مايك"، ثم شرب قدحا من الخمر وأخذ يدعو على "كون"، ولكني شغلت بالدوار الذي ألم برأسي وتوجهت إلى الفندق، واقتضى مني الصعود جهدا كبيراً ووقتا طويلا، ورأيت

ضوءا في حجرتي، وخرج للقائي "بيل" قائلا:

– اصعد يا "جاك" إلى حجرة "كون" فحالته سيئة، وهو يسأل عنك..

– عليه اللعنة..

– هيا اصعد.. اصعد يا رجل فهو بحاجة إليك..

وكانت حالتي تجعلني لا أرحب بصعود طبقة أخرى.. فقلت:

– ولماذا تحدق في وجهي بهذه الصورة؟

– أنا لا أحدق فيك.. اصعد إلى "كون".. إنه في حالة سيئة..

– ولكنك غادرتنا منذ قليل لأنك سكران..

فقال "بيل" بصبر نافد:

– وأنا الآن سكران بالفعل.. ولكن يجب أن تصعد الآن وترى "كون" فهو يلح في أن يراك..

– وهو كذلك..

وتحاملت على نفسي كي أصعد السلم، وكأني أحمل في كل يد من يدي حقيبة ثياب ثقيلة وهمية.. وبعد جهد وصلت إلى باب حجرة "كون" فوجدتها مقفلة، وطرقت الباب.. فسمعت صوتا يقول:

– من هناك؟

– "كون".. أنا "بارنز".. افتح..

– ادخل.. الباب ليس مغلقا بالمزلاج..

ووضعت يدي على المقبض، وأدرته ودخلت.. وكانت الحجرة مظلمة،

و"كون" مستلق على وجهه فوق السرير في الظلام..

- أهلا بك يا "جاك"..

- لا تنادني بهذا الاسم..

وانفجر "كون" باكيا، وهو منكفئ على وجهه، وكان مرتديا قميصا أبيض مما يرتديه لاعبو البولو من طلاب الجامعة..

- أنا آسف يا "جاك" آسف جدا.. اصفح عني..

- إلى الجحيم بالصفح عنك..

- اصفح عني، أرجوك يا "جاك"..

ولم أجب، وظللت واقفا عند الباب..

- كنت مجنونا.. يجب أن تفهم موقفي..

- وهو كذلك..

- لم أستطيع احتمال أن يحدث هذا لـ "بريت"..

- لقد سبتني (....).

- اعلم هذا، أرجوك أن تنسى هذه الإساءة.. كنت مجنونا

- وهو كذلك..

وعاد للبكاء.. وكان صوته مضحكا، وهو يبكي بقامته الضخمة، مستلقيا على وجهه فوق السرير بملابس البولو..

وأخيرا قال:

- إني راحل غدا..

وتقلب على السرير، ثم جلس فوقه وقال:

- إلى الملتقى يا "جاك".. أفلا نتصافح؟

- ولم لا؟

وتصافحنا، ولم أستطع أن أتبين وجهه في الظلام بوضوح..

وقلت له:

- نراك في الصباح إذن..

- إني راحل في الصباح..

- آه.. وهو كذلك..

وخرجت وتركت "كون" واقفا بباب الحجرة، فسألني:

- ألست على ما يرام..؟

ولم أستطع الاهتداء إلى الحمام إلا بعد جهد.. ولما دخلته عجزت عن فتح صنابير الماء، فجلست بثيابي على الحوض برهة.. ولما أردت القيام اكتشفت أن حذائي مخلوع من قدمي، فحملته في يدي ونزلت إلى حجرتي وخلعت ثيابي وأويت إلى فراشي..

الفصل السادس عشر

استيقظت وفي رأسي صداع، فوجدت الفرق الموسيقية تطوف بالشوارع.. وتذكرت أني كنت قد وعدت "أدنا" صديقة "بيل" أن أصحبها لمشاهدة الثيران، وهي تمر بالطرقات إلى الساحة، فارتديت ثيابي ونزلت إلى جو الصباح البارد.. فإذا الناس يعبرون الميدان مسرعين نحو ساحة المصارعة، وإذا هناك صفان طويلان أمام كشكي بيع تذاكر حفلة المصارعة لهذا اليوم في انتظار بداية البيع في تمام الساعة السابعة، واخترقت الميدان بسرعة إلى المقهى، فأخبرني الساقي أن أصحابي كانوا هناك ثم انصرفوا، فسألته:

– وكم كان عددهم؟

– سيدان وسيدة..

فأدركت أن "بيل" و"مايك" مع "أدنا"، وكانت "أدنا" بالأمس خائفة أن يغلبها النوم، ولذا ألحت علي كي اصطحابها، أما وقد اطمأننت، فقد جلست وشربت على مهل قهوة، ثم انضممت إلى موكب الذاهبين إلى ساحة المصارعة وقد تم صحوي.. وإن يكن الصداع لم يزل يزعجني.. إلا أنه لا يكبل حواسي.

وكان الزحام على أشده في الساحة، في كل موضع منها، وسمعت وأنا في الخارج الصاروخ المؤذن بالابتداء، فأدركت أنني لن ألحق المشهد من الداخل فقررت البقاء للمشاهدة من الخارج.

ووقفت مع الواقفين أمام السور.. وبعد قليل بدأ الناس يقبلون وهم يعدون بكل سرعتهم، وقد ارتفع صراخهم، وفي هذه اللحظة خرج عن الصف

من بين الواقفين معي رجل سكران، وفي يده قميص يلوح به كي يستلفت أنظار الثيران، ويحاورها على طريقة المصارعين.. فأدركه اثنان من رجال الشرطة، وأخذ أحدهما بخناقه، وضربه الآخر على أم رأسه بهراوة وأعاداه إلى الصف، وسرعان ما مرت الثيران تعدو من آثار الناس إلى داخل الساحة، وفي آخر لحظة تعكر صفو السلام لأن الثور الأخير هجم فجأة على أحد الواقفين واخترق بقرنه ظهره، ورفعه إلى أعلى وطوحه في الهواء ثم أسقطه، وظل الرجل على الأرض مستلقيا على وجهه، في بركة صغيرة من الطين، ولم يهتم به أحد، لأن الناس كانوا يتزاحمون على تسلق السور ليشاهدوا ما يجرى داخل الساحة التي ارتفع منها الصياح والهتاف في موجات.. وكل موجة منها تعني أن ثورا هاجم الجمهور المحتشد.

وأخيراً انطلق صاروخ إيذانا بأن السياس تمكنوا من إدخال الثيران إلى حظائرها، فغادرت مكاني عائدا إلى المدينة..

وتوجهت إلى المقهى لأتناول القهوة للمرة الثانية مع بعض الشرائح من الخبز الجاف بالزبد.. فوجدت السقاة يكنسون المكان وينظفون الموائد، وجاءني أحدهم وتلقى طلبي وسألني:

– هل وقعت حوادث؟

– لم أر كل شيء لأني كنت بالخارج.. ولكن رجلا جرح جرحا بليغا.

– أين؟

– هنا..

وأشرت له بيدي إلى وسط ظهري، وبيدي الأخرى إلى صدري، آية على أن القرن قد نفذ من ظهره، فهز الساقي رأسه ونفض البقايا عن الموائد بخرقة في

يده، وهو يقول:

– جرح خطر.. وكل هذا باسم الرياضة.. باسم اللهو!

وغادرني ثم عاد إلي بالقهوة واللبن، وصب لي القهوة الساخنة في الفنجان الكبير، وهز رأسه مرارا قبل أن يقول:

– جرح نافذ في الظهر.. كل هذا لأجل الرياضة واللهو..

وفرغ من صب القهوة، فجلس قبالتي، وسألني:

– ما رأيك في كل هذا؟

– لا أدري..

– كل هذا باسم اللهو.. مجرد اللهو!

– أنت لست من مشجعي اللعبة فيما يبدو؟

– أنا؟.. وما هي الثيران؟.. إنها مجرد حيوانات.. بهائم، سائمة.

ونهض واقفا، ووضع يده على منتصف ظهره، واستطرد:

– طعنة نافذة في الظهر.. قرن ثور يخترق الظهر، ويزعمون أن هذا رياضة ومتعة وتسلية..

ومرة أخرى هز رأسه، وانصرف حاملا الأواني الفارغة، وإذا برجلين يمران في الشارع فصاح بهما الساقي يسألهما عما أصاب الجريح، فبدت عليهما إمارات الأسى، وهز أحدهما رأسه وقال:

– مات..

والتفت إلى الساقي، وقال:

– أسمعت؟ مات الرجل.. مات.. قضى رجل نحبه بطعنة من قرن ثور، شهيدا في سبيل قضية لهو وعبث!

– شيء يؤسف له حقا..

– أنا لا أؤمن بهذا اللهو.. لا أرى في هذا اللغو الماجن لذة.

وعلمنا بعد ذلك أن القتيل اسمه "فيرونيز" وهو قادم من قرية طافالله، وقرأنا في اليوم التالي في الصحف أنه كان في الثامنة والعشرين من عمره وله مزرعة وزوجة وطفلان، وأنه واظب على الحضور لمشاهدة المهرجان منذ عام زواجه.

وفي اليوم التالي، حضرت زوجته من طافالله لتلازم الجثة.. وفي الغد أقيمت صلاة خاصة عليه في كنيسة سان فيرمين، ثم حمل النعش إلى محطة سكة الحديد.. حمله فريق الراقصين الذين كانوا يطوفون بالشوارع طوال الأسبوع ومعهم موسيقاهم، وكانت موسيقاهم معهم الآن، ولكنها تعزف ألحاناً من نوع آخر يبعث قشعريرة قوية في البدن، ومن خلف النعش سارة الزوجة والطفلان اليتيمان..

ووضع النعش في غرفة خاصة من غرف البضاعة ألحقت بقطار الركاب، وجلست الأرملة واليتيمان في عربة مفتوحة من عربات الدرجة الثالثة، ثم انطلق القطار نحو حقول القمح التي تقع وسطها طافالله..

والثور الذي قتل "فيرونيز" اسمه "بوكانيجرا" أي ذو الفم الأسود، وقد قتله "روميرو" بعد ذلك اليوم نفسه، وقطع المساعدون أذنه وقدموها إلى "روميرو" فقدمها إلى "بريت" فلفتها في منديل –وهو بالصدفة منديلي– وتركت المنديل والأذن مع عدد من السجائر الأسبانية في درج بحجرة نومها بفندق مونتويا عند رحيلها..

وغادرت المقهى إلى الفندق، ودخل في اللحظة نفسها ثلاثة من السقاة كانوا قد خرجوا لمشاهدة العرض الصباحي، ورأيتهم يصعدون السلم ضاحكين وتبعتهم صاعدا إلى حجرتي، وخلعت حذائي ورقدت على السرير، وكانت النافذة مفتوحة وضوء الشمس يغمر الغرفة، ولم أشعر برغبة في النوم مع أني كنت قد أويت إلى فراشي في الليلة الماضية في نحو الساعة الرابعة صباحا، وأيقظتني الفرق الموسيقية في الساعة السادسة، ولا بدان لهذا القلق صلة باللعين "كون".. كان ينبغي أن يذهب بعد أول إهانة وجهت إليه، ولكنه كان موقنا من أن "بريت" تحبه ولذا لم يرحل..

وطرق بعضهم الباب فصحت:

– ادخل..

ودخل "مايك" و"بيل" فجلسا على الفراش، وقال بيل:

– يا له من صباح.. الجو حار.. وها هو "جاك" العزيز المضروب..

– خبراني ماذا حدث داخل الساحة؟

فقال "بيل" لـ "مايك":

– أخبره يا "مايك"..

– كانت تلك الثيران في طريقها إلى الداخل، ومن أمامها الجمع المحتشد كالعادة، وإذا بأحدهم يخرج من الصف ويثير الثيران فهجمت على الجماهير بأجمعها..

– لقد سمعت الصراخ وأنا في الخارج..

فقال "بيل":

– ما سمعته لابد أن يكون صراخ "أدنا"..

واستطرد "مايك":

– وانتاب الناس جنون.. فبرزوا الواحد تلو الآخر يلوحون بقمصانهم والثيران تطعنهم، فنقلت سيارات الإسعاف أكثر من عشرين شخصا، وقبض رجال الشرطة على عدد كبير من هواة الانتحار.. وأخيرا تمكن السياس من إدخال الحيوانات إلى الحظيرة، ولكن ذلك استغرق منهم ما لا يقل عن ساعة..

فقال "بيل":

– بل ربع ساعة فقط..

– أف لك.. لقد بدت لي المدة ساعتين ونصف الساعة..

– وماذا فعلتما بالغادة "أدنا"..

– أوصلناها إلى فراشها بخير وسلام..

– وما رأيها فيما شاهدته؟

– كانت تلح علينا أن ننزل نحن أيضاً إلى الحلقة لنبارز الثيران لأنها شغوفة بكل ما فيه حركة وإثارة.. ولكني قلت لها أن ذلك لن يكون إلا خيانة مني لدائني الكثيرين، فمن ذا الذي يفي لهم بديونهم الطائلة على شخص إذا مت؟

وسألني "بيل":

– كيف حال فكك يا "جاك"؟ ولماذا لم تضربه بكرسي؟

فأجابه "مايك" ضاحكا:

– الكلام سهل يا "بيل"، ولو كنت أنت معنا لصرعك أيضا.. إنه سريع اليد جدا، حتى أني لم أره وهو يضربني، ولم أشعر بنفسي إلا وأنا جالس على الأرض والمسكين "جاك" تحت المائدة.

– وأين ذهب بعدها؟

وفجأة هتف "مايك" مبتهجا:

– ها هي الحسناء حاملة البيرة..

ففي هذه اللحظة دخلت ساقية تحمل الزجاجات المثلجة ووضعتها على المنضدة، وعدت أسألهما:

– وأين ذهب "كون" بعد أن صرعني؟

وأجابني "مايك" وهو يفتح زجاجات البيرة:

– ألم تعلم؟

– كلا..

فقال "بيل" متعجبا:

– حقا؟..

وقال "مايك" وهو يصب البيرة:

– ذهب إلى حجرة مصارع الثيران، فوجد "بريت" معه فأوسعه ضربا وكاد يقتله.

وأراد أن يأخذ "بريت" وينصرف بها.. يا له من أحمق، ولكن "بريت" ألقت عليه ماء باردا فانقلب إلى التوسل والبكاء، وسعى إلى الاعتذار للمصارع وأراد أن يصافحه تدليلا على التصافي، وأن يصافح "بريت" أيضا..

– مفهوم.. فقد أراد أن يصافحني أيضا..

– حقا؟.. ولم يقبل المصارع أن يصافحه، وكلما أوقعه على الأرض نهض محاولا استئناف القتال، ولم يتمكن "كون" من التغلب عليه بضربة قاضية كما فعل بنا..

– ومن الذي قص عليكما هذه الأنباء؟

فقال "مايك":

– "بريت".. قابلتها اليوم، وأخبرتني أيضا أن المصارع كان مصمما على قتله اليوم لو لم يبادر بالرحيل، بعد أن يئس من مصافحة المصارع و"بريت" له، وكلما بسط يده للمصارع كان يلكمه، و"كون" لا يجيبه بالمثل لفرط ندمه ويذرف الدمع..

– ومتى رأيت "بريت"؟

– هذا الصباح.. أتت إلى الحجرة لتأخذ أشياء تخصها، فهي تلازم ذلك الفتى للعناية به بعد أن أصابته أكثر من عشرين لكمة جيدة بسببها..

وشرب قدحا آخر من البيرة.. وقال:

– هذا دأب "بريت" تحب أن تسهر على الضعفاء، وهذا هو سر تعلقها بي.. لأني امرؤ ضعيف خائر لا أفيق من السكر، ولو لم ترعني لأكلتني الكلاب.. ومع هذا وجهت إليها النصح طبعا: قلت لها أن عاقبة الاختلاط باليهود والمصارعين لابد أن تكون وخيمة، فهل تدري ماذا كان جوابها؟

– ماذا كان جوابها يا "مايك"؟

– قالت: وهل الطبقة الراقية الانجليزية أفضل من اليهود والمصارعين والحمالين؟..

وهي إجابة سديدة للغاية.. فاللورد آشلي الذي اكتسبت منه اللقب كان بحارا، وفي الفترات الوجيزة التي كان يلم فيها بالبيت يرفض أن ينام فوق الفراش، بل ينام على الأرض ويصر على أن تنام "بريت" أيضا على الأرض معه، وكان يهددها دائما بالقتل ولا ينام إلا ومعه مسدس ضخم محشو بالرصاص، فلم تكن حياتها معه غاية في السعادة، هذه المسكينة..

ونهض وهو يترنح، واتجه إلى الباب قائلا:

– سأذهب الآن إلى حجرتي وأحاول أن أظفر بقسط من النوم..

وبعد برهة قصيرة انصرف "بيل" أيضاً لينام، على أن نلتقي عند الظهر في مقهى ايرونا.

***

ووقت الظهر كنا جميعا في المقهى، وكان الزحام فيها شديدا وشربنا بيرة مثلجة على عادتنا، وكانت المدينة كلها مزدحمة، وجميع الشوارع غاصة بالناس، والسيارات الكبيرة تصل بلا انقطاع من بياريتز وسان موريتز وسان سباستيان مقلة لهواة مشاهدة المصارعة، وكان كل الراقصين سكارى، فاليوم هو آخر أيام المهرجان..

ووصلت سيارة سياحة كبيرة بها نحو ٢٥ سيدة انجليزية.. ووقفت بهن السيارة وسط الميدان، ورحن ينظرن بالنظارات المقربة إلى المواكب الراقصة.. وكأن سيارتهن جزيرة وسط البحر الآدمي، مثل جزيرتهن البريطانية التي أتين منها.. ولكن ما أن غادرن السيارة حتى ذبن في الجمهور الكبير، ولم يهدني إلى وجودهن إلا اختلاف ثيابهن عن ثياب بقية الناس.. ولاسيما الفلاحين، وفيما عدا هذا كان المهرجان يستوعب الجميع.

وفجأة قال "بيل":

– ها هي "بريت" قادمة..

والتفت إلى حيث أشار، فرأيتها تخترق الزحام رافعة الرأس كأن المهرجان لم يكن إلا تكريما لها.. ولما انتهت إلينا هتفت:

– سلاما أيها الرفاق.. كم أنا ظمآنة..

وطلب لها "بيل" زجاجة بيرة، وسألته "بريت":

– هل رحل "كون"؟

– نعم. استأجر سيارة.

وجاءت البيرة ورفعتها "بريت" فإذا بيدها ترتعد، ولاحظت هي ذلك فابتسمت وعبت من البيرة جرعة كبيرة، ولما وجدتني سامتا قالت لي:

– بيرة جيدة.

فقلت لها بإيجاز:

– جيدة جدا.

فقد كنت قلق البال بخصوص "مايك"، وأكبر ظني أنه لم ينم، ولابد أنه قضى الليل وصدر النهار في شراب متصل، وعادت "بريت" تقول لي:

– سمعت أن "كون" آذاك بلكماته يا "جاك"..

– كلا.. كل ما هناك أنه أصابني بضربة قاضية..

– ولكنه آذى "روميرو" إيذاء لا شك فيه.. ألحق به أضراراً واضحة..

– وكيف حاله الآن؟

– أحسن كثيرا، ولكنه لن يبرح غرفته، وقد استأذنته لأراكم برهة..

– وهل سيصارع اليوم؟

– طبعا.. وسأذهب معكما، إن لم يكن لديكما مانع..

وسألها عندئذ "مايك" فجأة:

– كيف حال صاحبك الفتى؟

لقد كان المسكين من السكر بحيث لم يفقه شيئا مما قالته "بريت"، واستطرد بعد قليل:

– لدى "بريت" الآن مصارع ثيران.. وكان لديها من قبل يهودي اسمه "كون" ولكنها استغنت عن خدماته لأنه لم يثبت جدارة..

وانتصبت "بريت" قائمة، وقالت:

– لست مستعدة لسماع هراء من هذا القبيل يا "مايك"..

– كيف حال فتاك؟

– على خير ما يرام، ارقبه جيدا بعد الظهر..

– مرحى.. مرحى.. "بريت" حصلت على مصارع ثيران في ميعة الصبا.. وسيم للغاية.

فالتفتت "بريت" نحوي وقالت:

– هل لك في أن تمشي معي قليلا فإني أريد أن أتحدث إليك..

فصاح "مايك":

– حدثيه بكل شيء عن مصارعك الهائل.. إلى الجحيم أنت ومصارعك..

– وركل المائدة فتدحرجت جميع الآنية وتحطمت، وصاحت "بريت":

– هيا بنا يا "جاك".. فلنبتعد عن هذا الهرج..

وفي الطريق قالت لي:

– سوف لا أقابله بعد الغداء إلى أن تنتهي حفلة المصارعة لأن أتباعه سيحضرون كي يلبسوه ثيابه، وقد قال لي أنهم في غاية السخط علي..

وكانت "بريت" مشرقة الإشراق كله، ينضح وجهها بالسعادة وهي تقول:

– أشعر أني تغيرت كل التغير يا "جاك"..

– أتريدين مني أن أصنع لك شيئاً؟

– أوه.. لا شيء، إلا أن تذهب معي إلى ساحة المصارعة؟

– هل سنراك على مائدة الغداء؟

– لا.. فسآكل معه..

وأمام باب الفندق قالت لي:

– أتحب أن نذهب في جولة بالحديقة؟ لا أريد أن أصعد إليه الآن لأنه على الأرجح نائم..

وسرنا عبر الميدان، واجتزنا الثكنات إلى الحديقة، فإذا بها مزدحمة بزوار المدينة الأجانب، فقالت لي "بريت" قرب باب الحديقة:

– إنها مزدحمة، وحالتي النفسية لا تسمح بأن يحدق الناس في..

ووقفنا في الشمس نتحدث.. وكان الحر شديدا بعد انقطاع المطر فقالت:

– أرجو أن تسكن الريح لأنها تعرقل عمله كثيرا..

– وأنا أيضا أرجو هذا..

– لقد قال لي أن ثيران اليوم لا غبار عليها.. هل هذه كنيسة سان فيرمين؟

– نعم.. فمن هنا بدأت المواكب يوم الأحد الماضي..

– إذن هيا بنا ندخل.. ألديك مانع؟ أحب أن أدعو له..

ودخلنا.. وكان الظلام سائدا في جوف الكنيسة، وهناك كثيرون يصلون

تتبين أشكالهم متى تعودت عيناك الظلام، وركعنا أمام إحدى الأيقونات، وبعد برهة شعرت أن "بريت" قد تصلب جسدها بجواري.. وتبينت أن بصرها شاخص إلى الأمام، وهمست بصوت أجش:

– هيا بنا نخرج من هنا، فقد بدأت أعصابي تتوتر..

ولما خرجنا إلى ضوء الشمس في الشارع، رفعت "بريت" بصرها إلى ذؤابات الأشجار التي تعبث بها الريح، وعرفت أن دعواتها لم تأت بفائدة، وقالت:

– لست أدري لماذا تتوتر أعصابي كلما دخلت كنيسة، ولا أجد لذلك راحة..

وسرنا في طريقنا، وهي تقول:

– أنا لست قلقة عليه، فليست عندي إحساسات في الوقت الحاضر سوى إحساسي بالسعادة لقربه مني، ومع هذا أتمنى لو سكنت الريح..

– المنتظر أن تسكن الريح في نحو الساعة الخامسة..

– أتمنى هذا..

فقلت ضاحكا:

– ادعي الله، صلي من أجل هذه الأمنية..

– الصلاة لا جدوى منها بالنسبة لي.. لم أحصل في أي يوم على شيء صليت من أجله.. فهل حدث لك يا "جاك" أن حصلت على شيء بالصلاة؟

– نعم..

– هراء.. ولكن لعل الصلاة تجدي على بعض الناس، ومع هذا لا يبدو عليك التدين..

– إني متدين جدا..

– أنت تهذي..

وضحكت ضحكة صافية.. والحق أنها كانت أول مرة أراها فيها وقد عادت إلى مرحها القديم، وخلو بالها، وعدم مبالاتها، منذ ذهبت في تلك الرحلة الحمقاء مع "كون".

وقادتنا خطواتنا مرة أخرى إلى الفندق، وكان الخدم قد فرغوا من وضع الموائد تحت البواكي وامتلأت بالآكلين، وقالت لي "بريت":

– تول "مايك" برعايتك، ولا تتركه يؤذي نفسه بالإفراط في الشراب..

وعند رأس السلم قابلنا "مونتويا" فانحنى من غير أن يبتسم، وقالت لي "بريت":

– سأقابلك في المقهى.. وأشكرك كثيرا يا "جاك".

ورأيتها تدخل حجرة "روميرو".. لم تطرق الباب، بل فتحته بكل بساطة ودخلت ثم أغلقت الباب خلفها، ووقفت أنا أمام باب "مايك" وطرقت، فلم أحظ بجواب.. ولكن عندما أدرت المقبض انفتح الباب، ووجدت الحجرة في حالة فوضى شاملة، فكل الحقائب مفتوحة وجميع الثياب منثورة، وأمام الفراش زجاجات كثيرة فارغة و"مايك" نفسه مستلق على السرير أشبه بالموتى، وفتح عينيه ونظر إلي، وقال ببطء شديد:

– أهلا بك يا "جاك".. أني أحاول أن أنام قليلا.. منذ مدة طويلة وأنا بحاجة إلى النوم..

– دعني إذن أغطيك..

– كلا.. أنا أشعر بما يكفيني من الدفء.

ولما حاولت أن أنصرف قال:

– كلا، لا تذهب الآن.. لم يواتني النوم بعد..

– ستنام.. لا تقلق بالك يا "مايك"..

– وكيف أقلق؟ "بريت" حصلت على مصارع ثيران، ولكن اليهودي رحل.. أليس هذا جميلا؟

– طبعا.. طبعا نم الآن يا "مايك".. يجب أن تنام..

– سأنام قليلا..

وأغلق عينيه، فغادرت الحجرة وأغلقت الباب بهدوء، ووجدت "بيل" في حجرتي يطالع الصحف فسألني:

– هل رأيت "مايك"؟

– نعم..

– إذن هيا بنا نأكل..

وبينما كنا نهبط الدرج، رأينا الخادمة تحمل صحافا مغطاة، فقال "بيل":

– ها هو غداء "بريت" يحمل إليها..

– وغداء الغلام أيضا..

ولم يطب لنا أن نتناول الغداء في الفندق، فاجتزنا الميدان وتغدينا في مطعم بشارع جانبي.. وكان كل الطاعمين فيه من الرجال، فكان الدخان يملأ المكان، والجميع يغنون ويشربون، وكان الطعام جيدا وكذلك الشراب.. ولم نتكلم كثيرا، وبعد الغداء ذهبنا إلى المقهى، وراقبنا مواكب المهرجان وهي تصل إلى ذروة صخبها وبهجتها، وبعد برهة أقبلت "بريت" وقالت أنها مرت في طريقها إلينا

بالحجرة التي يشغلها "مايك" وأنها وجدته نائما نوما عميقا..

وفي الوقت المناسب ذهبنا إلى ساحة المصارعة، وجلست "بريت" بيني وبين "بيل" في الصف الأول، وأقبل المساعدون والسياس وحملة السيوف، فاتخذوا مواضعهم أمامنا عند الحاجز، وكانت جميع المقاعد مكتظة بالناس، وكذلك جميع المقاصير، فليس ثمة مقعد واحد اللهم إلا مقصورة الرئيس الذي لا يحضر إلا في آخر لحظة، ومتى وصل بدأت الحفلة، وبالقرب من الباب المؤدي إلى الحظائر، وقف المصارعون وقد عقدوا أذرعهم تحت معاطفهم الموشاة بالذهب والفضة وهم يتحدثون في انتظار إشارة البدء كي يجتازوا الساحة، وكانت "بريت" ترقبهم بالمنظار المقرب، ثم قالت لي:

– خذ المنظار إن كنت تريد أن ترى..

وتناولت منها المنظار ونظرت فرأيت المصارعين الثلاثة –وقد وقف "روميرو" في الوسط– ومن خلفهم أتباعهم، وكان "روميرو" مرتديا كسوة سوداء، وقد أرخى قبعته المثلثة فوق عينيه، فلم أستطع أن أرى وجهه بوضوح.. ولكنه كان يحدق أمامه شأن شارد الذهن..

وأخيراً وصل الرئيس وارتفع التصفيق، وأعطيت المنظار إلى "بريت" وقد شرعت الفرقة الموسيقية تعزف، وقدم المصارعون الثلاثة استعراضهم التقليدي، ومن ورائهم الموكب المعهود.. وانحنى المصارعون أمام منصة الرئيس وقبعاتهم في أيديهم.

وخلع "روميرو" معطفه الموشي وطواه وأعطاه لحامل سيفه، وقال له شيئاً بصوت خفيض فتناول حامل السيف المعطف وتقدم منا، وقدم المعطف إلى "بريت" فقلت لها:

– انشريه أمامك..

ومالت "بريت" إلى الأمام، وبسطت المعطف المثقل الموشي بالذهب، ونظر حامل السيف إلى الخلف وهز رأسه وقال شيئا، ومال رجل بجوارنا وقال لـ "بريت":

– إنه لا يريد منك أن تبسطيه، أطويه وضعيه في حجرك..

فطوت "بريت" المعطف الثقيل، ووضعته في حجرها.. ولم يرفع "روميرو" وجهه إلينا، بل طلب إناء به ماء فجاءه حامل سيفه بإناء الماء، فصب منه قليلاً على بطانة ذيل معطف المصارعة الذي يرتديه، ثم دلى المعطف في الرمل وقلبه بقدمه، فسألتني "بريت":

– لماذا صنع هذا بالمعطف؟

– ليثقله فلا يسهل على الريح العبث به..

وقال "بيل":

– إن وجهه به كدمات كثيرة جدا.

فقالت "بريت":

– إنه في حالة سيئة، وكان ينبغي أن يكون في الفراش.

وكان الثور الأول من نصيب المصارع بلمونت، وقد أظهر براعة كبيرة حقا، وهو يتقاضي ثلاثين ألف بيزيتا عن كل حفلة. ولذا يطالبه الناس دائما بأكثر من الامتياز، ولذا كانت حماستهم لـ "روميرو" شديدة باعتباره الجيل الصاعد من المصارعين الذين يبشرون بمستقبل عظيم، وبدأ التصفيق له منذ تحرك نحو الثور، وأظهر "روميرو" براعة تصل إلى حد العبقرية.

وعدنا نحن الثلاثة إلى الفندق، وصعدت "بريت" إلى الطابق العلوي، وبقينا أنا و"بيل" في حجرة المائدة كي نأكل بيضا مسلوقا ونشرب البيرة المثلجة،

وشعر "بيل" كما شعرت بتعب شديد وحاجة إلى الراحة. وهكذا نشعر بعد كل حفلة مصارعة نشهدها، لأننا نندمج أشد الاندماج في المعركة الدائرة بين الإنسان والثور المدافع عن حياته، وقال لي "بيل" أنه يريد أن يشرب الابسنت في المقهى، فذهبنا إلى هناك.

وكان الميدان غاصا بالناس، وخبراء الألعاب النارية يستعدون لإطلاقها في الليلة الأخيرة للمهرجان، ومن حولهم حلقة كبيرة من الغلمان، وسألت "بيل":

– أين صاحبتك "أدنا"؟

– لا أدري..

وساعد شراب الابسنت على تحسين حالتنا النفسية، ونحن نرقب المواكب، وقال "بيل":

– إني آسف من أجل "كون"، فقد تعذب هناك كثيرا..

– ليذهب "كون" إلى الجحيم..

– وأين تظنه قد ذهب؟

– إلى باريس..

– وماذا تظنه سيصنع؟

– ألا سحقا له..

– قل لي ماذا تظنه صانعا؟

– لعله عاد إلى صاحبته القديمة..

– ومن هي صاحبته القديمة؟

– من تدعى باسم "فرانسيس"..

وبعد أن شربنا كأساً أخرى من الابسنت سألني:

– ومتى تنوي أن تعود؟

– غدا.. وكان المهرجان على العموم لطيفا..

– نعم، كنا مشغولين طوال الوقت..

– إنه أشبه بكابوس عجيب..

– طبعا.. طبعا..

وأدهشه ردي المقتضب، فقال:

– ماذا بك؟ هل تحس بكآبة؟

– ووجوم..

– أشرب كأسا ثالثة..

وشربت كأسا ثالثة، ولكن حالتي لم تتحسن.. فاقترح علي أن أشرب كأسا رابعة، بيد أني عارضت.. ولكنه لم يلتفت لمعارضتي، وطلب لي كأسا رابعة شربتها مرة واحدة وشعرت بالسكر يستولي علي.. فنهضت وصممت على العودة إلى الفندق ولما صعدت رأيت حجرة "بريت" مفتوحة، فأطللت برأسي داخلها فإذا "مايك" وفي يده زجاجة يلوح بها، فناداني فدخلت وجلست والحجرة تدور بي من شدة السكر، وقال لي:

– "بريت" رحلت مع مصارعها.. وقد كانت تريد أن تسلم عليك قبل سفرها، ولكنها لم تجدك.. وكان الوقت ضيقا لأنهما لحقا بقطار الساعة السابعة..

ونزلت إلى حجرتي بصعوبة شديدة وإذا بها تدور بي، ورقدت على سريري ولكن السرير ظل يتأرجح بي كأنه زورق فوق بحر لجي، فجلست في فراشي

ونظرت إلى الجدار عسى أن يقف السرير في موضع واحد، ومن الخارج كنت أسمع ضجة المهرجان بيد أنها لم تثر انتباهي لرغبتي في النوم، أو لشدة ما بي من السكر.

وحضر إلى حجرتي فيما بعد "بيل" و"مايك" ليأخذاني معهما للعشاء.. ولكني تصنعت النوم، فقال "بيل".

– إنه نائم.. الأفضل أن نتركه لينام.

– إنه أعمى من شدة السكر..

والتعبير عن شدة السكر بالعمى من الاصطلاحات المأثورة عن "مايك"..

وبعد خروجهما قمت ونظرت من الشرفة إلى مواكب الراقصين، فكان هذا امتحانا جيدا لي ولحالة السكر.. فقد عرفت أني لست أعمى، أو على الأقل لم أعد كذلك.. فالدنيا لا تدور بي، فاغتسلت ومشطت شعري، ونظرت على نفسي في المرآة فخيل إلي أن مظهري غريب بعد هذا التأنق، ونزلت إلى قاعة المائدة، فقال "بيل":

– ها هو "جاك" العجوز العزيز. كنت واثقا أنه لن ينام إلى الغد.

وهتف "مايك":

– مرحبا بك أيها السكير العجوز.

– شعرت بالجوع فاستيقظت.

وجلست معهما إلى المائدة، وخيل إلى أن الجالسين معي ينقصهم نحو ستة أشخاص، كي تتم الصحبة.

الفصل السابع عشر

استيقظت في نحو الساعة التاسعة، فاستحممت وارتديت ثيابي ونزلت إلى الطابق الأرضي، ولما خرجت إلى الشارع وجدت الأثر الأخير للمهرجان هو اهتمام الغلمان بالتقاط الخراطيش الفارغة، ولا زحام في الشوارع، والميدان خاو، أما المقاهي، فكان السقاة والخدم يقومون بتنظيفها ووضع الكراسي البيضاء على مشارفها حول الموائد البيضاء ذات الأسطح الرخامية تحت البواكي الظليلة.

وجلست إلى مائدة فوق أحد تلك الكراسي المريحة التي سأفتقدها، ولم يستعجل الساقي الحضور لخدمتي كما كان يفعل أيام المهرجان، وخرج من المقهى ساقي يحمل في يده وعاء به ماء وخرقة زرقاء اللون، وشرع يمزق الإعلانات الملصقة بأعمدة البواكي ويزيلها بالماء، وهذه الإعلانات من بقايا المهرجان المنقضي. وشربت قهوة قوية، وبعد برهة أقبل "بيل" فجلس قبالتي وطلب قهوة، ثم قال:

– ها قد انتهى كل شيء.

– نعم. والآن متى تنوي أن تعود؟

– لا أدري. يحسن بنا في رأيي أن نستأجر سيارة. ألست أنت أيضا عائدا إلى باريس؟

– لا لدي متسع من الوقت لمدة أسبوع آخر، وقد أذهب إلى سان سباستيان..

– أما أنا فأريد أن أعود فورا.

– وماذا سيصنع "مايك"؟

– إنه ذاهب إلى سان جان دي ليز.

– إذن لنستأجر كلنا سيارة إلى بايون. ومن هناك تستطيع أن تستقل القطار إلى باريس الليلة. فما رأيك؟

– رأي سديد. هيا بنا الآن نستعد للسفر بعد الغداء.

– وهو كذلك. سأتولى أنا أمر السيارة.

وبعد تناول الغداء طلبنا الحساب ودفعناه، ولم يقترب منا "مونتويا" بل كانت إحدى الخادمات هي التي أحضرت القائمة إلينا، وكانت السيارة تنتظرنا في الخارج، وتولى السائق ترتيب الحقائب فوق ظهر السيارة وعلى المقعد الأمامي بجواره، ثم ركبنا. وانطلقت بنا السيارة فاخترقت الميدان والشوارع الجانبية، وصعدت التل. وأخيراً غادرت مدينة بمبالونا نهائيا، فكأنها كما قال "بيل" حلم من نوع عجيب.

وحرص "مايك" على أن يحضر معه زجاجة من الكونياك المحلي، ولم أتناول منها سوى جرعتين. وسرعان ما دخلنا المنطقة الجبلية وغادرنا بعدها إسبانيا بأسرها، ولما بلغنا بايون تركنا حقائب "بيل" في المحطة واشترى تذكرة إلى باريس، وكان موعد قيام قطاره الساعة السابعة وعشر دقائق، وخرجنا من مبنى المحطة حيث كانت السيارة في انتظارنا، وتساءل "بيل":

– ماذا نفعل بالسيارة؟

فقال "مايك": لنحتفظ بها.

فقال "بيل": وهو كذلك. أين نذهب إذن؟

– نركبها إلى بياريتز ونتناول هناك شرابا ثم نعود.

فهتف "بيل": ليحيا "مايك" المتلاف..!

وذهبنا إلى بياريتز وتركنا السيارة أمام فندق من الدرجة الأولى الممتازة، ثم دخلنا البار وجلسنا فوق المقاعد العالية وشربنا الويسكي بالصودا، وقال "مايك":

– هذا على حسابي.

فقلت: هيا بنا نلعب الزهر، والرابح هو الذي يدفع الحساب.

ورمينا الزهر وخرج الحساب من نصيب "مايك" وأعطى الساقي هبة كبيرة، وشربنا كأسا أخرى، ورمينا الزهر وخرج الحساب في سهم "مايك" أيضا، وشربنا مرة ثالثة ورابعة. وفي كل مرة يعطي "مايك" الساقي هبة سخية، وفي المرة الخامسة خرج الحساب أيضاً من سهم "مايك"، وإذا به يقول:

– أنا آسف جدا. لا أستطيع أن أدفع هذا الحساب الأخير. لم تبق معي نقود، اللهم إلا عشرون فرنكا. فخذوها. هذا آخر ما كان معي بعد أن دفعت حسابي، ولم يكن مع "بريت" نقودا فأديت عنها حسابها.

وتغير وجه "بيل" وقال له:

– أستطيع أن أصرف لك شيكا الآن.

– هذا كرم عظيم منك. ولكني لا أستطيع أن أحرر شيكات، فليس لي رصيد.

– وماذا ستفعل الآن ؟

– لابد أن تصلني نقود قريبا، ويمكنني أن أقيم على الحساب في ذلك الخان في سان جان. لا تهتم.

– هيا نشرب كأسا أخرى على حسابي.

– وهو كذلك.

– وما رأيك يا "جاك" في السيارة؟

– الأمر عندي سيان.

– ولكن ما هذا الذي ذكرته عن "بريت"؟ أليس معها نقود؟

– كلا. ولكن هذه مسألة عادية بالنسبة لها. إنها يندر أن تمتلك نقودا. مخصصاتها خمسمائة جنيه في السنة، تدفع منها ٣٥٠ جنيها فوائد ديون قديمة.

وبعد الكأس السابعة خرجنا وركبنا السيارة، وقال "بيل":

– أين تريدنا أن نذهب يا "مايك"؟

– لنتنزه قليلا يا "بيل". النزهة دائماً مفيدة للصحة، ويستحسن أن تكون النزهة على الشاطئ، فليست علي ديون هناك.

وانطلقت بنا السيارة في طريق الساحل الجميل إلى أن اقترب موعد قطار "بيل"، فطرقنا الحاجز الزجاجي الذي يفصلنا عن السائق، وطلبنا منه أن يعود بنا.

وكان طريق العودة يمر بقرية سان جان التي يقصدها "مايك". فأوقفنا السيارة أمام الخان، ونزل منها وحمل له السائق الحقائب، ووقف "مايك" بجوار السيارة يودعنا قائلا:

– إلى اللقاء أيها الرفاق. لقد كان المهرجان بديعا شائقا للغاية.

فقال "بيل": إلى اللقاء يا "مايك".

وقلت أنا: سأراك قريبا.

فأجابني: لا تقلق بسبب النقود يا "جاك". ادفع أجر السيارة وسأرسل إليك نصيبي.

– إلى الملتقى يا "مايك".

– إلى اللقاء أيها الصديقان، لقد كنتما في غاية اللطف.

وصافحناه ولوحنا له بأيدينا والسيارة منطلقة، ووقف هو يراقبنا، وكان وصولنا إلى بايون قبيل تحرك القطار وقمت بتوديعه عند البوابة الداخلية للمحطة، وسألته:

– هل ستكون في باريس؟

– كلا. سأبحر في يوم ٢٧ إلى اللقاء يوما ما.

ومرق من البوابة، وبقيت في مكاني إلى أن مر القطار، ورأيته مطلا من إحدى نوافذه. ثم لم يلبث القطار أن اختفى عن نظري، وخلت المحطة من الناس والتفت في سحابة من الصمت، فخرجت إلى حيث السيارة وسألت السائق:

– كم تريد؟

وكان الاتفاق على مائة وخمسين بيزيتا للرحلة إلى بايون فقط، وقال الرجل:

– مائتي بيزيتا يا سيدي.

– وكم تريدني أن أدفع علاوة على هذا إذا طلبت منك أن تقلني في طريق عودتك إلى سان سباستيان؟

– خمسين بيزيتا.

– لا تبالغ.

– إذن اجعلها خمسة وثلاثين.

– هذا كثير. اذهب بي إلى فندق السلة المزهرة.

وعند الفندق أعطيت السائق أجره، ونفضت عن ثيابي التراب لعله كان

آخر ما يربطني بإسبانيا ووقفت في الطريق أرقب السيارة وهي تختفي عن نظري، ثم دخلت الفندق وطلبت حجرة فأعطوني الحجرة نفسها التي نزلت بها عندما كنت أنا و"بيل" و"كون" في بايون. وخيل لي أن ذلك كان منذ زمن طويل جدا.

واغتسلت وغيرت قميصي ثم نزلت إلى المدينة، واشتريت من أول كشك لبيع الصحف نسخة من "النيويورك تايمز"، وجلست في مقهى أقرأها. وأحسست بضرب من الغربة لوجودي في فرنسا مرة أخرى حيث الاستقرار والهدوء. وفكرت في أنه كان الأولى بي أن أذهب إلى باريس مع "بيل". ثم راجعت نفسي في هذا الخاطر، لأن باريس كثيرة الصخب، وجوها يذكر الإنسان بجو المهرجان وما فيه من انطلاق وخروج على كل عرف، كلا. إني بحاجة شديدة إلى فترة من الهدوء والبعد عن الضجيج، ولا شك أن سان سباستيان هادئة جدا، وأنها خير مكان يفي بالغرض الآن. فالموسم هناك لا يبدأ قبل أغسطس، فلو ذهبت إلى هناك لكنت حريا أن أظفر بفندق جيد وأفرغ للسباحة والقراءة، فالشاطئ هناك بديع جدا، وطريق النزهة على البحر تظلله الأشجار الوارفة، وفي المساء تصدح الموسيقى من مقهى ماريناس، وفي ذلك المقهى أستطيع أن أجلس وأستمع لتلك المعزوفات.

وفي صباح اليوم التالي، ركبت القطار إلى سان سباستيان، وكان الجو هناك نديا رغم شدة الحرارة بوجه عام. وأوراق الأشجار يبدو أنها لا تذبل ولا تعرف الجفاف، والشوارع كأنها مغسولة لتوها، بحيث تجد رطوبة حتى في أكثر الأوقات حرارة. وقصدت فندقا كنت أعرفه من قبل، وأعطوني حجرة ذات شرفة تطل على سقوف المدينة، ومن وراء السقوف منظر جبلي تكسو سفوحه الخضرة.

على مائدة بجوار الفراش، وضعت جميع الكتب التي أحضرتها من بايون معي، بعد أن أفرغت محتويات حقائبي. وحرصت على إخفاء أدوات الحلاقة

بعيدا عن نظري، ورتبت ثيابي النظيفة في الصوان وأعددت مجموعة كبيرة من الثياب القذرة لإرسالها إلى المغسل، ثم دخلت الحمام ولكنني اكتشفت شدة جوعي، فاكتفيت بالوقوف تحت الرشاش برهة، ونزلت على وجه السرعة لأتناول غدائي. واكتشفت أن الوقت هنا يختلف عن الوقت في بايون، فالساعة هنا متأخرة ٦٠ دقيقة. ولذا لم يكن موعد الطعام قد حان، فضبط ساعتي على حسب التوقيت المحلي، وعزيت نفسي بأنني كسبت بحضوري إلى سان سباستيان ساعة إضافية من وقتي.

وعند دخولي إلى قاعة المائدة، قدم لي كاتب الاستقبال استمارة خاصة من إدارة الشرطة لأن سان سباستيان داخل الحدود الإسبانية، فوقعت عليها وطلبت منه ورقتين من أوراق البرق، وحررت برقية إلى فندق مونتويا كي يحولوا كل بريد أو برقيات تصل باسمي إلى هذا العنوان، وأرسلت إلى مكتبي بباريس كي يحجزوا كل الرسائل العادية لحين حضوري. أما البرقيات فيجب أن يحولوها إلى سان سباستيان لمدة الأيام الستة القادمة، وبعد أن فرغت من ذلك تهيأت لتناول غدائي.

بعد الغداء صعدت إلى حجرتي، وقرأت قليلا ثم استسلمت للنوم. ولما استيقظت كانت الساعة قاربت الخامسة فتناولت ثوب الاستحمام ومنشفة ومشط، ونزلت إلى الشاطئ. وكان المد في منتصفه والرمل أصفر ناعم، ودخلت إحدى الكبائن وارتديت ثوب الاستحمام، وسرت فوق الرمل الناعم إلى البحر، وكان الماء باردا، ولكني انتهزت أول موجة وغصت فسبحت قليلا تحت الماء. ولما خرجت إلى السطح كانت رعدة البرد قد فارقتني، وخرجت إلى الشاطئ فرقدت فوق الرمال الدافئة. ولمحت فتاة راقدة بجوار فتاها، وقد فكت أربطة ثوب استحمامها لتعرض ظهرها للشمس، وفتاها راقدة على بطنه ووجهه إلى

الأرض يتحدث إليها وهي تضحك لما يقوله لها وتقلب ظهرها في الشمس، ولما تم جفاف جسمي من الماء ذهبت إلى "الكابين" واغتسلت، وجففت جسمي جيدا بالمنشفة وارتديت ثيابي. ومشيت في طريق يدور حول الميناء تحت الأشجار إلى الكازينو، ثم إلى مقهى ماريناس. وكانت الفرقة الموسيقية تعزف بالداخل، فاخترت لي مكانا في الخارج على الشرفة كي أستمتع بالنسمات الرخية، واحتسيت على مهل كوبا كبيرا من عصير الليمون المركز الممزوج بالثلج المجروش. وبعد قليل شربت على مهل كأسا من الويسكي بالصودا، وانصرفت إلى القراءة ومراقبة الناس والاستماع للموسيقى.

ولما بدأ الظلام يخيم، سرت حول الميناء على طريق البحر المحفوف بالأشجار، ثم عدت إلى الفندق للعشاء، وكان هناك سباق كبير للدراجات، والمتسابقون سيقضون الليلة في سان سباستيان، فوجدت في القاعة عند دخولي مائدة إضافية طويلة في الصدر، وقد جلس إليها المتسابقون يأكلون. وجميعهم من الفرنسيين والبلجيكيين، فكانوا يولون الطعام اهتمامهم كله، وهم يمرحون ويمزحون بلهجة عامية ويكثرون من النكات التي لا يليق أن تقال على مسمع من النساء. وبعد العشاء تناولت قهوتي في الشرفة الخارجية للفندق مع أحد منظمي السباق، وهو مندوب مصنع كبير للدراجات، وحدثني عن السباق، وشربنا معا كأسا من الكونياك. ووعدته أن أستيقظ مبكرا كي أشاهد انطلاق المتسابقين في الساعة السادسة إلا ربعا قبل اشتداد الشمس، ولكن عندما استيقظت، كان المتسابقون قد انطلقوا منذ ثلاث ساعات. فشربت القهوة وقرأت الصحف في فراشي، وارتديت ثيابي وأخذت ثوب الاستحمام وذهبت إلى الشاطئ، واستمتعت بالسباحة مدة أطول من الأمس، ثم أخذت حمام شمس، وعند الظهر عدت إلى الفندق، فوجدت المتسابقين قد تركوا نسخا من

الصحف الخاصة بالرياضة التي تصدر في باريس فخطر لي أن استغلها في الإحاطة بما لا أهتم به عادة من الحياة الرياضية في فرنسا. وبينما أنا منهمك في ذلك، أقبل البواب وفي يده مظروف أزرق اللون وقال:

– هذه البرقية لك يا سيدي.

فضضت المظروف وبسطت البرقية أمامي، وإذا بها محولة من باريس، وهذا نصها:

– أرجو أن تحضر إلى فندق مونتانا بمدريد لأني في مأزق. "بريت"

فأعطيت البواب هبة لينصرف، وأعدت تلاوة البرقية، ولم أفرغ من ذلك إلا وقد أقبل ساعي البريد ودخل الفندق ثم لم يلبث أن غادره، وأقبلت مساعدة البواب إلى الشرفة حيث أجلس، وقالت:

– وهذه برقية أخرى لك يا سيدي.

وشكرتها وأعطيتها هبة، وفضضت المظروف، وإذا البرقية محولة من بمبالونا وهذا نصها:

– أرجو أن تحضر إلى فندق مونتانا بمدريد لأني في مأزق. "بريت"

وناديت البواب وسألته عن مواعيد القطارات الذاهبة إلى مدريد، فقال:

– هناك قطار بطيء في الحادية عشرة، واكسبريس الجنوب في العاشرة مساء.

– إذن احجز لي تذكرة نوم في اكسبريس الجنوب. هل تريد النقود الآن؟

– كما تشاء. سأضيفها إلى قائمة الحساب.

وأرسلت إلى "بريت" برقية في أخبرها بحضوري، وأنا أعجب من أمر نفسي. فأنا أحب، ثم يكون نصيبي من الحب أن أعرفها برجل، فإذا بها تذهب

معه إلى رحلة غرامية وتطلب مني أن أعرفها برجل آخر راق لها، وأخيرا تبرق إلي كي أعود بها.

ولم يخرجني من إطار هذه الفكرة السوداء إلا حلول وقت الغداء. ولم أحظ بقسط كبير من النوم تلك الليلة في القطار. فلما طلع النهار ذهبت إلى عربة الأكل وتناولت إفطارا لم أعرف له طعما، ولعل الطعام لم يكن سيئا، ولكني لم أكن في حالة تسمح لي أن أحسن الحكم على أي شيء، وجلست أشرب القهوة وأتطلع إلى مناظر الريف والمراعي والجبال وهي تتوالى أمام عيني في منطقة الاسكوريال بغير اكتراث. ومحطة الشمال بمدريد هي نهاية الخط الحديدي. فجميع القطارات ينتهي سيرها هناك، ثم تعود من حيث أتت، وأمام المحطة يقف صف طويل من مندوبي الفنادق، وصفوف من السيارات والعربات. فهي أشبه بمدينة من مدن الأقاليم في أمريكا أو فرنسا، وركبت سيارة أجرة، وطلبت من السائق أن يذهب بي إلى فندق مونتانا.

ووقف السائق أمام مبنى، قرأت على الطابق الثاني منه لافتة الفندق، وحمل السائق الحقائب وتركها أمام المصعد، وعجزت عن تشغيل المصعد، فلم أجد بدا من الصعود عن طريق السلم، وعند الطابق الثاني وجدت لافتة نحاسية تحمل اسم الفندق، وسهما يشير إلى الباب. وضغطت على زر الجرس، ولكن أحدا لم يفتح. فعدت إلى ضغط الجرس وإذا بخادمة كالحة الوجه تفتح الباب، فسألتها:

– هل الليدي آشلي هنا؟

فحملقت في وجهي بغباء شديد، فقلت لها:

– هل تقيم هنا امرأة انجليزية؟

وعندئذ التفتت إلى الوراء، ونادت أحداً بالداخل، فأقبلت سيدة بدينة

جدا ذات شعر أشيب، قصيرة القامة، صارمة القسمات، فقلت لها:

– طاب يومك. هل تقيم هنا سيدة انجليزية؟ أحب أن أقابل هذه السيدة الانجليزية.

– طاب يومك. نعم تقيم هنا آنسة انجليزية. وطبعا تستطيع أن تراها إذا كانت هي ترغب في ذلك.

– إنها راغبة في أن تراني.

– ستذهب الخادمة لتسألها.

ووجدت نفسي معها، وهي صامتة في انتظار عودة الخادمة، فقلت:

– الحر شديد.

– الحر شديد جدا في مدريد في فصل الصيف.

– والبرد شديد جدا في الشتاء.

– نعم البرد شديد جدا في الشتاء. هل تريد حجرة لك؟

– لست متأكدا. ولكن يسرني أن يأتي أحد بحقائبي من أمام المصعد حتى لا تسرق.

– اطمئن، فلا شيء يسرق في فندق مونتانا. أجل هناك سرقات في الفنادق الأخرى، أما في فندق مونتانا فلا.

– يسعدني جدا أن أسمع هذا. ومع ذلك أرجو أن يحضر أحد الحقائب.

وعادت الخادمة، وقالت:

– الآنسة الانجليزية تريد أن ترى السيد الانجليزي الآن فورا.

– ها أنت قد رأيت أن ما قلته صحيح.

وتبعت الخادمة ذات الوجه الكالح في دهليز طويل مظلم، طرقت بابا في نهايته، وسمعت صوت "بريت" من الداخل تصيح:

– مرحبا بك يا "جاك". ادخل. ادخل.

ففتحت الباب ودخلت، وأغلقت الخادمة الباب ورائي. ووجدت "بريت" في الفراش تمشط شعرها، وفي يدها الفرشاة، والحجرة في تلك الحالة من الفوضى التي لا تعهد إلا في حجرات من تعودن طوال حياتهن على أن تكون في خدمتهن وصائف.

وهتفت "بريت": حبيبي.

فخطوت نحو الفراش ووضعت ذراعي حولها، وقبلتني. وشعرت أنها تفكر في شيء آخر تماما. وأنها ترتعد وهي تلوذ بحضني حتى صارت من انكماشها مثل طفلة صغيرة، وقالت:

– لقد تعذبت كثيرا يا حبيبي.

– خبريني بكل شيء.

– إنه لم يرحل إلا أمس فقط. أنا التي طلبت منه أن يرحل ويتركني هنا.

– ولماذا لم تستبقيه؟

– لست أدري. ولا أعتقد أنني سببت له ضررا.

– بالعكس. لعلك كنت معه أرق وأكرم من اللازم.

– لقد تحققت من أنه لا يصلح للحياة مع أحد.

– حقا؟

– نعم. بحق السماء لا تدعنا نتحدث في هذا الموضوع.

– وهو كذلك.

– لقد كانت صدمة كبيرة لي أن يخجل من صحبتي.

– يخجل من صحبتك !

– نعم. لقد كان في الفترة الأولى يخجل من صحبتي.

– ولكن لماذا؟

– كان رفاقه في المقهى يغيظونه بسببي لأن شعري مقصوص، ولذا كان يريد مني أن أطيل شعري، ويقول لي أن ذلك سيجعلني أكثر جمالا، وطبعا لم أطعه لأن منظري بشعر طويل سيكون سخيفا جدا.

– وماذا فعل عندما رفضت؟

– لم يطل غضبه، ولم يخجل مني بعد أن تعود شكلي.

– ولكن ما موضوع المأزق الذي ذكرته في برقيتك؟

– كنت لا أدري هل أجعله هو الذي يرحل أم أنا التي أتركه، لأنه لم يكن معي سنتا واحدا كي أشتري تذكرة السفر أو أدفع نفقات الفندق، وقد حاول طبعا أن يعطيني مالا كثيرا، ولكني قلت له أنني أملك مالا لا يعد ولا يحصى، وكان يعلم أن هذا كذب، ولكن لم يكن في استطاعتي قطعا أن آخذ منه نقودا. ومع هذا فقد كانت هناك أمور كثيرة مسلية ومضحكة. هات سيجارة يا "جاك".

وأشعلت لها سيجارة. وبعد أن جذبت منها نفسا عميقا قالت:

– لقد تعلم الانجليزية في جبل طارق، وهو يعمل ساقيا هناك.

– أعلم هذا.

– وانتهى به الأمر إلى تطلعه إلى الزواج مني.

– لعله اعتقد أن زواجه منك يجعله لورد آشلي.

– أوه، لم يكن الأمر كذلك. الحقيقة أنه كان يريد أن يتزوجني حتى لا أفارقه –على حد قوله–كان يريد أن يضمن عدم هجري له، بعد أن أغدو أكثر أنوثة بالطبع.

– لابد أن هذا أرضاك.

– أوه. لقد محا –على كل حال–الأثر الخبيث الذي خلفه عندي "كون" اللعين.

– هذا شيء جميل على كل حال.

– كنت مستعدة أن أعيش معه ولا أفارقه، لولا أنني أدركت أن هذا سيضر به.

وأطفأت سيجارتها وقالت:

– إنني في الرابعة والثلاثين من عمري كما تعلم، ولست مستعدة أن أكون إحدى المجرمات اللواتي يفسدن حياة غلمان في مثل سن أبنائهن.

– كلا بالطبع.

ونظرت إلى الأمام، ولم تحول نظرها، فقدمت إليها سيجارة أخرى. وعندئذ أدركت أنها تبكي. ترتجف وتبكي، فطوقتها بذراعي مرفها عنها، فقالت:

– أتوسل إليك ألا تتحدث في هذا الموضوع مرة أخرى.

– عزيزتي "بريت"..

وازداد ارتجافها وهي لائذة بصدري، وقالت:

– سأعود إلى "مايك".. إنه لطيف جدا وفظيع جدا في آن واحد!.. مثلي تماما.. أنه من طرازي..

كانت تتكلم وهي مطرقة لا تريد أن ترفع وجهها، وربت لها شعرها وهي ترتجف وتقول:

– لن أكون واحدة من أولئك المجرمات الفاسدات، كلا.. ولكن أستحلفك ألا نتكلم في هذا الموضوع بعد الآن.. أتوسل إليك..

وغادرنا فندق مونتانا.. ولم تقبل مني مديرته أن أدفع الحساب، وقالت إن الحساب مدفوع.. ونظرت إلى "بريت"، فهزت رأسها وقالت:

– لا بأس.. ليست لهذا الآن أهمية..

وركبنا سيارة أجرة إلى فندق بالأس، وأودعنا الحقائب، ورتبنا أمر حجز تذكرتين في القطار السريع بعربة النوم.. ثم دخلنا إلى بار الفندق لنشرب الكوكتيل، وجلسنا على مقعدين عاليين في انتظار المشروب، وفجأة قالت "بريت":

– أتدري؟ إنها الحقيقة..

– ماذا؟..

– أنه في التاسعة عشرة، لم يتجاوزها.. أليس هذا عجيبا؟

وقدم الساقي الشراب فقرعنا الكأسين، ولم أقل شيئا.. فقالت:

– لم أصدق في البداية أن هذا هو عمره، فهو رجل كامل النمو، ولكنه قدم لي بطاقته، فإذا به من مواليد عام ١٩٠٥.. أي عندما كنت أنا في المدرسة الثانوية في باريس.. تصور هذا.

– ولماذا تريدين مني أن أتصوره؟

– لا تكن غبيا.. أريد كأسا أخرى..

وطلبت من الساقي كأسين آخرين من المارتيني، واستطردت "بريت" تقول:

– طفل غرير.. يكفي أن تعلم أنه لم يعرف النساء من قبل إلا مرتين.. فكل ما كان يهتم به هو مصارعة الثيران..

– إنه صغير السن وأمامه متسع من الوقت..

– وقد أكد لي أن شخصي هو الذي استهواه، وليس الحق المحيط بي..

– وهو كذلك.. كنت أنت لا الجو..

– نعم أنا وليس الجو..

– كنت أعتقد أنك لا تريدين الكلام في هذا الموضوع..

– وهل لي في ذلك خيار أو حيلة؟

– ستبددين التجربة وطعمها إذا أنت واظبت على أن تلوكيها هكذا بلسانك.

– أنا لا ألوكها، بل أتحدث على هامشها، لأني أشعر بالرضا عن نفسي لأنني لم أقبل أن أكون مجرمة تفسد حياة غلام في سن ابنها.

– طبعا.. طبعا..

– هذا مصدر كبير للقوة، فالإغراء شديد جدا كما تعلم..

وغادرنا الفندق إلى مطعم مشهور هو مطعم "بوتان" وهو من أحسن المطاعم في العالم أجمع ولا شك.. ومع أن الطعام كان ممتازا جدا إلا أن "بريت" لم تصب منه شيئا كثيرا. أما أنا فأكلت بإفراط وشربت كمية هائلة من الخمر..

ولاحظت "بريت" ذلك فسألتني:

– ماذا بك يا "جاك"؟ لقد أكلت كثيرا..

– أنا بخير حال.. أتريدين حلوى؟

– كلا..

وأشعلت "بريت" سيجارة، وقالت لي وأنا أصب لنفسي كأسا:

– هل تحب الأكل كثيراً يا "جاك"؟

– نعم.. أنا أحب أشياء كثيرة منها الأكل..

– وماذا تحب أيضا؟

– أشياء كثيرة جدا.. لماذا لا تتناولين حلوى؟

– لقد سألتني عن هذا من قبل..

– إذن اشربي كأسا أخيرة من هذه الخمر الجيدة..

– إنها جيدة جدا فعلا..

– ولكنك لم تشربي منها كثيرا..

– بل شربت من غير أن تفطن أنت..

– هيا بنا نشرب زجاجتين أخريين..

وطلبت الزجاجتين، واحضرهما الساقي.. وأخذنا نشرب، فكنت أتجرع بسرعة أزعجت "بريت" حتى أنها وضعت يدها على ذراعي كي تمنعني قائلة:

– بالله عليه لا تفرط إلى درجة السكر يا "جاك"..

– أنا لا أسكر.. كل ما هناك أني أحب احتساء الخمر الجيدة.

– ناشدتك الله ألا تسكر يا "جاك"..

– ألك إذن في الذهاب إلى نزهة بالسيارة؟

– وهو كذلك. فأنا لم أر مدريد من قبل. لم أكد أغادر الفندق.

– أمهليني إذن إلى أن انتهي من هذه الكأس.

وأرسلنا الساقي فأحضر لنا سيارة أجرة. وكان الجو حارا.

واضطجعت في ركن السيارة، وزحفت "بريت" فالتصقت بي، فوضعت يدي حولها، وسكنت أنفاسها مخلدة إلى صدري.

وبعد لحظة قالت لي "بريت":

– جاك. كان من الممكن أن نعيش معا أهنأ حياة.

فأجبتها قائلا:

– أليس جميلا أن يخامر المرء هذا الإحساس؟

الفهرس

مقدمة ٥
الفصل الأول ١١
الفصل الثاني ١٦
الفصل الثالث ٢٠
الفصل الرابع ٣١
الفصل الخامس ٣٦
الفصل السادس ٤٢
الفصل السابع ٤٧
الفصل الثامن ٥٥
الفصل التاسع ٦٦
الفصل العاشر ٧٢
الفصل الحادي عشر ٨٣
الفصل الثاني عشر ٩٤
الفصل الثالث عشر ١٠٩
الفصل الرابع عشر ١٢٥
الفصل الخامس عشر ١٣٩
الفصل السادس عشر ١٥٣
الفصل السابع عشر ١٧٣